تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء العشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء العشرون

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

يتطهرون : أي ينزهون أنفسهم ويتباعدون عما نفعله ويزعمون أنه من القاذورات ، قدّرنا : أي قضينا وحكمنا ، الغابرين : أي الباقين فى العذاب .

المعنى الجملى

سبق أن بيّنا أن الذين قسموا القرآن إلى أجزائه الثلاثين لاحظوا العدّ اللفظى للحروف والكلمات والآيات ، ولم ينظروا إلى ارتباط المعانى بعضها ببعض ، ومن ثم ترى هنا أن الجزء قد انتهى قبل تمام قصة لوط وبدئ الجزء العشرون بتمام هذه القصة ، وقد بين فيها أن النصح لم يجدهم شيئا وعقدوا العزم على استعمال القوة

فى إخراجه من بين ظهرانيهم ، ولم يكن لهم حجة على المعارضة إلا أن لوطا وقومه لايريدون أن يشاركوهم فيما يفعلون تباعدا من الأرجاس، وتلك مقالة قالوها على سبيل الاستهزاء بهم ، وقد نسوا أن هناك قوة أشد من قوتهم هى لهم بالمرصاد وأنها تمهلهم ولا تهملهم ، فلما حان حينهم جاءهم العذاب من حيث لايشعرون وأهلك الله القوم الظالمين ، ونصر الحق وأزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

الإيضاح

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) أى فلم يكن جوابهم للوط إذ نهاهم عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيان الذكور إلا قيل بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا وأهله من قريتنا ، وقد عدّوا سكناه بينهم منّة ومكرمة عليه إذ قالوا : من قريتكم .

ثم عللوا هذا الإخراج بقولهم استهزاء بهم :

(إنهم أناس يتطهرون) أى إنهم يتحرجون من فعل ما تفعلون ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لايصلحون لجواركم فى بلدكم .

ولما وصلوا إلى هذا الحد من قبح الأفعال والأقوال دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، وإلى هذا أشار بقوله :

(فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أى فأهلكناهم وأنجينا لوطا وأهله إلا امرأته جعلناها بتقديرنا وحكمتنا من الباقين فى العذاب ، لأنها كانت على طريقتهم راضية بقبيح أفعالهم وكانت ترشد قومها إلى ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبى الله صلى الله عليه وسلم ، لا كرامة لها .

ثم بين ما أهلكوا به فقال :

(وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) أى وأمطرنا عليهم مطرا غير ماعهد

من نوعه ، فقد كان حجارة من سجيل ، فبئس ذلك المطر مطر الذين أنذرهم الله عقابه على معصيتهم إياه ، وخوفهم بأسه بإرسال الرسول إليهم .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) .

شرح المفردات

العباد المصطفون : هم الأنبياء عليهم السلام ، الحدائق : البساتين واحدها حديقة ، والبهجة : الحسن والرونق ، يعدلون : من العدول وهو الانحراف ، قرارا : أى مستقرا ، الخلال : واحدها خلل وهو الوسط ، رواسى : أى ثوابت أى جبالا ثوابت ، الحاجز : الفاصل بين الشيئين ، والمضطر : الذى أحوجته الشدة وألجأته

الضراعة إلى الله ، ويكشف : أي يرفع ، خلفاء : من الخلافة وهى الملك والتسلط ، يهديكم : أي يرشدكم ، بين يدى رحمته : أي أمام المطر .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين وذكر أخبارهم الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه ، وعلى ما خصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة بجلال أقدارهم وصدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد وبطلان الشرك والكفر ، وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ، ومن أعرض عنهم فقد تردّى فى مهاوى الردى ، ثم شرح صدره عليه السلام بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية والمعارف الربانية الفائضة من عالم القدس مقررا بذلك قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » - أردف هذا بأمره عليه السلام بأن يحمده تعالى على تلك النعم ويسلم على الأنبياء كافة عرفانا لفضلهم وأداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرده بالخلق والتقدير ووجوب عبادته وحده ، وأنه لاينبغى عبادة شىء سواه من الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) أمر الله رسوله أن يحمده شكرا له على نعمه التى لاتعد ولا تحصى ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم لرسالته ، وهم أنبياؤه الكرام ورسله الأخيار .

ومن تلك النعم النجاة والنصر والتأييد لأوليائه ، وحلول الخزى والنكال والقهر بأعدائه .

ونحو الآية قوله : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وفى هذا تعليم حسن ، وأدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، والإصغاء إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المستمع ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر : هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة ، وفى مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن .

ثم شرع يوبخ المشركين ويتهكم بهم وينبههم إلى ضلالهم وجهلهم ، إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار فقال :

(آلله خير أم ما يشركون ؟) أى آلله الذى ذكرت لكم شئونه العظيمة خير أم الذى تشركون به من الأصنام ، وفى ذلك ما لا يخفى من تسفيه آرائهم وتقبيح معتقداتهم وإلزامهم الحجة ، إذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يوازن بينها وبين ما هو محض الخير ، فهو من وادى ما حكاه سيبويه : تقول العرب : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وكما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

أتهجوه ولست له بكفء		فشركما لخيركما الفداء

وجاء فى بعض الآثار «إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم» .

ثم انتقل من التوبيخ تعريضا إلى التبكيت تصريحا فقال :

(أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أى أعبادة ما تعبدون أيها المشركون من أوثانكم التى لا تضر ولا تنفع خير ، أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفائها وجعل فيها كواكب نيرة ونجوما زاهرة ، وأفلاكا دائرة ؟ وخلق الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا وسهولا وأوعارا ، وفيافى وقفارا ، وزروعا وأشجارا ، وحيوانات مختلفة

الأصناف والأشكال والألوان ، وأنزل لكم من السماء مطرا جعله رزقا للعباد فأنبت به بساتين مونقة تسر الناظرين ؟ ولولاه ما نبت الشجر ولا ظهر الثمر .

ونحو الآية قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وقوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ » .

ثم زاد فى التوبيخ فنفى الألوهية عما يشركون بعد تبكيتهم على نفى الخيرية عنها فقال :

(أإله مع الله ؟) أى أإله غيره يقرون به ويجعلونه شريكا له فى العبادة ؟ مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين كما قال : « وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ » .

ثم انتقل من تبكيتهم إلى بيان سوء حالهم فقال :

(بل هم قوم يعدلون) أى بل هؤلاء المشركون قوم دأبهم العدول عن طريق الحق والانحراف عن جادّة الاستقامة فى جميع شئونهم ، ومن ثمّ يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح وهو التوحيد ويعكفون على الضلال المبين وهو الإشراك .

وفى معنى الآية قوله : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ » وقوله : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ » .

ثم أعاد التوبيخ بوجه آخر فقال :

(أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا) أى أعبادة ماتشركون أيها الناس بربكم مع أنه لايضر ولا ينفع خير، أم عبادة الذى جعل الأرض مستقرا للإنسان والدواب، وجعل فى أوسطها أنهارا تنتفعون بها فى شربكم وسقى أنعامكم ومزارعكم ، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لاتميد بكم ،

وحتى تنتفعوا بما فيها من المعادن المختلفة ، وقد أنزل الماء على شواهقها وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزا يمنعهما من الاختلاط حتى لايفسد هذا بذاك ، والحكمة تقضى ببقاء كل منهما على حاله ، فالعذبة : لسقى الناس والحيوان والنبات والثمار ، والملحة : تكون مصادر للأمطار التى تجرى منها ، وهى وسيلة لإصلاح الهواء .

(أإله مع الله ؟) فى إبداع هذه الكائنات وإيجاد هذه الموجودات .

(بل أكثرهم لايعلمون) أى بل أكثر هؤلاء المشركين لايعلمون قدر عظمة الله وما عليهم من ضرّ فى إشراكهم غيره به ، وما لهم من نفع فى إفرادهم إياه بالألوهة وإخلاصهم العبادة له وبراءتهم من كل معبود سواه .

ثم زادهم توبيخا من وجه ثالث فقال :

(أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) أى أم ما تشركون بالله خير أم الذى يجيب المكروب الذى أحوجه المرض أو الفقر أو النازلة من نوازل الدهر إلى اللّجأ والتضرع إليه إذا دعاه وقت اضطراره ، ويرفع عن الإنسان ما يسوءه من فقر أو مرض ، ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم فى الأرض فيورثكم إياها بالسكنى والتصرف فيها ؟ .

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر ، قال : إذًا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال الشاعر :

وإنى لأدعو اللهَ والأمر ضيّق علىّ فما ينفك أن يتفرّجا
ورب أخ سُدَّت عليه وجوهه أصاب لها لمَّا دعا الله مخرجا

وعن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : « اللهم رحمَتَك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » وجاء فى الخبر : « ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن ، دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده » .

وفى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن: « واتق دعوة المظلوم فليس بينها و بين الله حجاب » .

(أإله مع الله ؟) الذى هذه شئونه وتلك نعمه .

ثم بين أن من طبيعة الإنسان ألا يتذكر نعم الله عليه إلا قليلا ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(قليلا ما تذكرون) أى قليلا ما تتذكرون نعم الله عليكم وأياديه عندكم ، ومن ثم أشركتم به غيره فى العبادة .

ثم زادهم تأنيبا وتهكما من ناحية أخرى فقال :

(أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) أى أم ماتشركون بالله خير، أم من يرشدكم فى ظلمات البر والبحر إذا أظلمت عليكم السبل فضللتم الطريق ـ بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال : «وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » وقال : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ومن يرسل الرياح أمام الغيث الذى يحيى موات الأرض.

ولما اتضحت الأدلة ولم يبق لأحد فى ذلك عذر ولا علة قال :

(أإله مع الله ؟) فعل هذا ؟

ثم أكد هذا النفى وقرره بقوله :

(تعالى الله عما يشركون) أى تنزه ربنا المنفرد بالألوهية ، ومن له صفات الكمال والجلال ، ومن تخضع له جميع المخلوقات ، وتذل لقهره وجبروته ـ عن شرككم الذى تشركونه به وعبادتكم معه ما تعبدون .

ثم أضاف إلى ذلك برهانا آخر لعلهم يرتدعون عن غيهم فقال :

(أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى أم ماتشركون خير أم الذى ينشئ الخلق بادئ بدء ويبتدعه من غير أصل سلف ، ثم يفنيه إذا

شاء ، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أن يفنيه ، وهو الذى يرزقكم من السماء والأرض فينزل من الأولى غيثا و ينبت من الثانية نباتا لأقواتكم وأقوات أنعامكم .

وهم و إن كانوا ينكرون الإعادة والبعث لم يلتفت إلى ذلك الإنكار لظهور أدلته فلم يبق لهم عذر فيه .

و بعد أن وضح الدليل على نفى الشريك بكّتهم وقال :

(أإله مع الله ؟) يفعل هذا حتى يجعل شريكا له .

و بعد أن ذكر البرهان تلو البرهان وأوضح الحق حتى صار كفلق الصبح زاد فى التهكم بهم والإنكار عليهم والتسفيه لعقولهم ، فأمر رسوله أن يطلب منهم البرهان على صدق مايدّعون. فقال :

(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أى قل لهم أيها الرسول : هاتوا الدليل على وجود ما تزعمون من الشركاء إن كان ما تقولونه حقا وصدقا .

قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

أيان : أى متى ، يبعثون : أى يقومون من القبور للحساب والجزاء ، ادّارك : أى تدارك وتتابع والمراد التتابع فى الاضمحلال والفناء ، فى شك : أى فى حيرة عظيمة ، عمون : واحدهم عم وهو أعمى القلب والبصيرة .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت تفرده بالألوهية ، لاختصاصه بالقدرة التامة والرحمة العامة ــ أعقب هذا بذكر لوازمها وهو اختصاصه بعلم الغيب ، تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من أمر البعث.

(قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) يقول سبحانه آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلم جميع خلقه أنه لايعلم الغيب أحد من أهل السموات والأرض ، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ » الآية . وقال : « إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » الآية .

والمراد بالغيب الشئون التى تتعلق بأمور الآخرة وأحوالها ، وشئون الدنيا التى لاتقع تحت حِسِّنا وليست فى مقدورنا .

وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : من زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون فى غد فقد أعظم الفرية على الله ، لأن الله يقول : «قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » .

ثم ذكر بعض ذلك الغيب فقال :

(وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما يدرى من فى السموات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة كما قال : « ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً » أى ثقل علمها على أهل السموات والأرض فلا يشعرون بها ، بل تأتيهم فجأة .

ثم أكد جهلهم بهذا اليوم بقوله :

(بل ادّارك علمهم فى الآخرة) أى بل انتهى علمهم وعجزهم عن معرفة وقتها فلم يكن لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسباب العلم ، وليس المراد أنه كان لهم علم بوقتها على الحقيقة فانتفى شيئا فشيئا ، بل المراد أن أسباب العلم ومبادئه من الدلائل العقلية والنقلية ضعفت فى اعتبارهم شيئا فشيئا كلما تأملوا فيها حتى لم يعد لها قيمة وكأن لم تكن .

ثم انتقل من وصفهم بالجهل بميقاتها إلى الحيرة فى الآخرة نفسها ، أتكون أو لاتكون ؟ فقال :

(بل هم فى شك منها) أى بل هم فى حيرة عظيمة من تحققها ووجودها ، أ كائنة هى أم غير كائنة ، كمن يحار فى الأمر لايجد عليه دليلا ، فضلا عن تصديق ما سيحدث فيها من شئون أخبرت عنها الكتب السماوية كالثواب والعقاب والنعيم والعذاب والأهوال التى لايدرك كنهها العقل .

ثم ارتقى من وصفهم بالشك فى أمرها إلى وصفهم بالعمى واختلال البصيرة بحيث لايدركون الدلائل التى تدل على أنها كائنة لامحالة فقال :

(بل هم منها عمون) أى بل هم فى عماية وجهل عظيم من أمرها ، وعن كل ما يوصلهم إلى الحق فى شأنها ، والنظر فى دلائلها .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧٢) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف جهلهم بالآخرة وعماهم عنها ــ أردف ذلك ببيان ذلك وإيضاحه بأنهم ينكرون الإخراج من القبور بعد أن صاروا ترابا ، وأنهم قالوا

تلك مقالة سمعناها من قبل ، وما هى إلا أسطورة من أساطير الأولين وخرافاتهم ؛ ثم أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى صدق هذا بالسير فى الأرض حتى يروا عاقبة المجرمين بسبب تكذيبهم للرسل فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم صبَّر سبحانه رسوله على ما يناله من أذى المشركين ، ووعده بالنصر عليهم ، ثم ذكر أنهم مكذبون بالساعة وغيرها من العذاب والجزاء الموعود ، وأنهم يسألون عن ذلك سخرية واستهزاء ، وأجابهم بأن العذاب سينزل بهم قريبا ، ثم ذكر فضله على عباده بأنه لايعجل لهم العذاب مع استحقاقهم إذ هم لايشكرونه على ذلك ، ثم بين أنه تعالى عليم بالسر والنجوى ، وأنه مطلع على ما تكنه القلوب ، وأنه ما من شىء مهما خفى فالله عليم به وهو مثبت عنده فى كتاب مبين .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) أى وقال الكافرون بالله المكذبون لرسله ، أئنا لمخرجون من قبورنا أحياء كهيئتنا من بعد مماتنا و بعد أن بلينا وكنا فيها ترابا ؟ .

وهذا منهم استبعاد لإعادة الأجسام بعد صيرورتها عظاما ورفاتا .

ثم ذكروا شبهتهم على استبعاده فى زعمهم فقال :

(لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) أى إنا ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى تحقق ذلك ولا وقوعه .

ثم أكدوا هذا الاستبعاد بقولهم :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما هذا الوعد إلا أسطورة مما سطره الأولون من الأكاذيب فى كتبهم من غير أن يكون لهم بينة على إمكان تحققه ووجوده .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم إلى وجه الصواب مع التهديد والوعيد فقال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) أى قل لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الأنباء من عند ربك : سيروا فى الأرض فانظروا إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين ، كيف هى ؟ ألم يخربها الله ويهلك أهلها بتكذيبهم رسلهم وردهم عليهم نصائحهم ، فخلت منهم الديار، وعفت منها الرسوم والآثار ، وكان ذلك عاقبة إجرامهم ، وتلك سنة الله فى كل من سلك سبيلهم فى تكذيب رسله ، وسيفعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا إلى الإنابة من كفركم وتكذيبكم رسوله .

ثم سلّى رسوله صلى الله عليه وسلم عما يناله من عماهم عن السبيل الذى هدى إليه الدليل فقال :

(ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) أى ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ، ولا يضق صدرك من مكرهم ، فإن الله ناصرك عليهم ومظهر دينك على من خالفه فى المشارق والمغارب .

ثم أشار إلى أنهم لم يقصروا إنكارهم على الساعة ، بل كان إنكارهم لغيرها من عذاب الله أشد بقوله :

(ويقولون متى هـــذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقول مشركو قريش المكذبون بما أتيتهم به من عند ربك : متى يكون هذا العذاب الذى تعدنا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تدعون .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم فقال :

(قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) أى عسى أن يلحقكم ويصل إليكم بعض ما تستعجلون حلوله من العذاب ، والمراد به ما حل بهم يوم بدر من النكال والوبال .

قال صاحب الكشاف : عسى ولعل وسوف ، فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجِدِّه ، وما لا مجال للشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ،

وأنهم لايعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم وتوقعهم أن عدوهم لايفوتهم ، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم ، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده اهـ .

ثم بين سبحانه السبب فى ترك تعجيل العذاب فقال :

(و إن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون) أى وإن ربك لهو المنعم المتفضل على الناس جميعا بتركه المعاجلة بالعقوبة على المعصية والكفر ، ولكن أكثرهم لايعرفون حق فضله عليهم . فلا يشكره إلا القليل منهم .

ثم أبان سبحانه أنه مطلع على مافى قلوبهم فقال :

(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) يقال كننت الشيء وأكننته : إذا سترته وأخفيته ، أى إن ربك يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » وقال « وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

وقصارى ذلك — إنه يعلم ما يخفون من عداوة الرسول ومكايدهم له وما يعلنون وهو محصيها عليهم ومجازيهم بذلك .

ثم ذكر أن كل ما يحصل فى الوجود فهو محفوظ فى اللوح المحفوظ فقال :

(وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) أى وما من أمر مكتوم وسر خفى يغيب عن الناظرين فى السماء أو فى الأرض إلا وهو فى أم الكتاب الذى أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من ابتداء الخلق إلى يوم القيامة ، وهو بيّن لمن نظر إليه وقرأ ما فيه مما أثبته ربنا جلت قدرته .

ونحوه : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » .

إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِن رَبَّكَ يَقْضِي

بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور وأقام على ذلك الدليل يتلوالدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ـ أردف ذلك بالكلام فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأقام الأدلة على صحتها وصدق دعواه فيما يدعى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ، لاجرم بين الله تعالى إعجازه من وجوه :

(١) إن ما فيه من القصص موافق لما فى التوراة والإنجيل مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا ولم يخالط أحدا من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذاً إلا من وحى إلهى من لدن حكيم خبير .

(٢) إن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر فى دنياهم وآخرتهم ـ لايوجد له نظير فى كتاب آخر ، فلا بدأن يكون ذلك من عند الله .

(٣) إنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر وأنه من الملإ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقُدَر .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكما على بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق فى هذا كاختلافهم فى أمر المسيح؛ فمن قائل هو الله ، ومن قائل هو ابن الله ،

ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب فى دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ما هى منزهة عنه ، وقالوا إن النبى المبشر به فى التوراة هو يوشع عليه السلام أو هو نبى آخر يأتى آخر الدهر، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه .

وأنه لايحكم إلا بالعدل فقوله الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لايستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لايعقلون ، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعى ، وآذان تسمع دعوة الداعى إلى الحق فتستجيب لها .

الإيضاح

(إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) أى إن هذا القرآن الذى أنزلته إليك أيها الرسول يقص على بنى إسرائيل الحق فى كثير مما اختلفوا فيه ، وكان عليهم لو أنصفوا أن يتبعوه ، لكنهم لم يفعلوا وكابروا مع وضوح الحق وظهور دليله كما تفعلون أنتم أيها المشركون .

ثم وصف القرآن بقوله :

(وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) أى وإنه لهاد المؤمنين إلى سبيل الرشاد ، ورحمة لمن صدّق به وعمل بما فيه .

وبعد أن ذكر فضله وشرفه أتبعه دليل عدله فقال :

(إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) أى إن ربك يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بحكمه العادل ، فينتقم من المبطل منهم ويجازى المحسن بما يستحق من الجزاء ، وهو العزيز الذى لايرد حكمه وقضاؤه ، العليم بأفعال العباد وأقوالهم ، فقضاؤه موافق لواسع علمه .

وبعد أن أثبت لنفسه العلم والحكمة والجبروت والقدرة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وحده فقال :

(فتوكل على الله) أى ففوض إلى الله جميع أمورك وثق به فيها ، فإنه كافيك كل ما أهمك، وناصرك على أعدائك، حتى يبلغ الكتاب أجله .

ثم علل هذا بقوله :

(إنك على الحق المبين) أى أنت على الحق المبين وإن خالفك فيه من خالفك ممن كتب عليه الشقاء : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ » .

ثم أيأسه من إيمان قومه وأنه لا أمل فى استجابتهم لدعوته فقال :

(إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) أى إنك لا تقدر أن تفهم الحق من طبع الله على قلوبهم فأماتها ، ولا أن تسمعه من أصمهم عن سماعه ولا سيما أنهم مع ذلك معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ، وإنما شبههم بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم ، وشبههم بالصم البكم ليبين أنه لا أمل فى استجابتهم للدعوة ، لأن الأصم الأبكم لا يسمع الداعى بحال .

وظاهر نفى سماع الموتى العموم ، فلا يخص منه إلا ما ورد بدليل كما ثبت فى الصحيح «أنه صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى فى قليب (بئر) بدر فقيل له: يارسول الله إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » . أخرجه مسلم .

وكما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه ، وما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا .

وقصارى ما سلف — إنه تعالى أمره بالتوكل عليه والإعراض عما سواه ، لأنه على الحق المبين ومن سواه على الباطل ، ولأنه تعالى مؤيده وناصره ، ولأنه لا مطمع فى مشايعة المشركين ومعاضدتهم ، لأنهم كالموتى وكالصم البكم ، فلا أمل فى استجابتهم للدعوة ، ولا فى قبولهم للحق .

ثم أكد ما سلف وقطع أطماعه فى إيمانهم على أتم وجه فقال :

(وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) أى أنت أيها الرسول لاتستطيع أن تصرف العمى عن ضلالتهم وتهديدهم إلى الطريق السوى ، والمراد أنك لاتهدى من أعماهم الله عن الهدى والرشاد فجعل على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما جئت به نظرا يوصلهم إلى معرفة الحق وسلوك سبيله .

ثم زاد ذلك توكيدا فقال :

(إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى إنما يستجيب لك من هو نافذ البصيرة خاضع لربه متبتل إليه مجيب لدعوة رسله .

والخلاصة — إنك لاتقدر أن تفهم الحق وتسمعه إلا من يصدقون بأدلتنا وحججنا ، فإنهم هم الذين يسمعون منك ما تقول ويتدبرونه ويعملون به ، إذ هم ينقادون للحق فى كل حين .

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

مَنْ جاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) .

شرح المفردات

وقع : حدث وحصل ، والمراد من القول : ما دل من الآيات على مجىء الساعة، تكلمهم : أى تنبئهم وتخبرهم ، نحشر : أى نجمع ، فوجا : أى جماعة من الرؤساء ، يوزعون : أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة ، ولم تحيطوا بها علما : أى لم تدركوا حقيقة كنهها ، ألم يروا: أى ألم يعلموا، ليسكنوا فيه أى ليستريحوا فيه ويهدءوا ، مبصرا : أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور معاشهم ، الصور : البوق ، داخرين : أى أذلاء صاغرين ، جامدة : أى ثابتة فى أماكنها ، أتقن : أى أحكم ، يقال رجل تقن (بكسر التاء) أى حاذق بالأشياء ، الحسنة : الإيمان وعمل الصالحات ، والسيئة : الإشراك بالله والمعاصى ، كبت : أى ألقيت منكوسة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وأبان بعدئذ إمكان البعث والحشر والنشر ، ثم فصل القول فى إعجاز القرآن ، ونبه بذلك إلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم – أردف ذلك بذكر مقدمات القيامة وما يحدث من الأهوال حين قيامها، فذكر خروج دابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم وأنه حينئذ ينفخ فى الصور فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وأن الجبال تجرى وتمر مر السحاب ، ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجعلهم

قسمين : مطيعين يعملون الحسنات فيثابون عليها بما هو خير منها و يأمنون الفزع والخوف ساعتئذ ، وعاصين يكبّون فى النار على وجوههم و يقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .

الإيضاح

(و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون) يخبر سبحانه بأنه حين فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق قرب مجىء الساعة ــ يخرج الله دابة من الأرض تحدث الناس بأنهم كانوا لايوقنون بآيات الله الدالة على مجىء الساعة ومقدماتها .

والمقصود من هذا التحديث : التشنيع عليهم بهذه المقالة ، وفى التعبير بكلمة (الناس) الإشارة إلى كثرتهم وأنهم جم غفير منهم .

وما جاء فى وصف الدابة والمبالغة فى طولها وعرضها وزمان خروجها ومكانه ــ مما لايركن إليه ، فإن أمور الغيب لايجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم .

ثم بين سبحانه حال المكذبين حين مجىء الساعة بعد بيان بعض مباديها وأشراطها فقال :

(و يوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ؟) أى و يوم نجمع من كل أهل قرن جماعة كثيرة ممن كذبوا بآياتنا ودلائلنا ونحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا فى موقف التوبيخ والإهانة ، حتى إذا جاءوا ووقفوا بين يدى الله فى مقام السؤال والجواب ، ومناقشة الحساب ، قال لهم ربهم مؤنبا وموبخا لهم على تكذيبهم أكذبتم بآياتى الناطقة بلقاء يومكم هذا بادى الرأى غير ناظرين فيها نظرا يوصلكم إلى العلم بحقيقتها ، أم ماذا كنتم تعملون فيها من تصديق وتكذيب ؟

(ووقع القول عليهم بمـا ظلموا فهم لاينطقون) أى وحل بأولئك المـكذبين بآيات الله — السخط والغضب بتكذيبهم بها ، فهم لاينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم من العذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ ، وَلاَ يُؤْذَنَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

و بعـد أن خوّفهم من أهوال يوم القيامة ذكر الدليل على التوحيد والحشر والنبوة فقال :

(ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى ألم ير هؤلاء المـكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار ومخالفتنا بينهم بجعل ذاك سكنا لهم يسكنون فيه ، ويهدءون راحة لأبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارا ، وجعل هـذا مضيئا يبصرون فيه الأشياء ويعاينونها ، فيتقلبون فيه لمعايشهم — فيتفكرون فى ذلك ويتدبرون ويعلمون أن مصرف ذلك كذلك ، هو الإله الذى لايعجزه شىء ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء ، وإحياء الأموات بعد الممات .

وفى ذلك أيضا دليل على النبوة ، لأنه كما يقلب الليل والنهار لمنافع المـكلفين ففى بعثة الأنبياء منافع عظيمة للناس فى دنياهم ودينهم ، فمـا المانع إذًا من بعثهم إليهم ؟ بل الحاجة إلى ذلك مُلِمَّة .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فيما ذكر لدلالة على قدرته على البعث بعد الموت ، وعلى توحيده لمن آمن به وصدّق برسله ، فإن من تأمل فى تعاقبهما واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم تحار فى فهمها العقول ، ولا يحيط بعلمها إلا الله ، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل الحالـكة المشابهة للموت ، بضياء النهار المضاهى للحياة ، وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة — قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وجزم بأن الله جعل هذا دليـلا على تحققه ، وأن الآيات الناطقة به حق وأنها من عند الله .

و بعد أن ذكر الحشر الخاص وأقام الدليل عليه — ذكر الحشر العام فقال :

(و يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) أى واذكر أيها الرسول لهم هول يوم النفخ فى الصور ، إذ يفزع من فى السموات ومن فى الأرض ، لما يعتريهم من الرعب حين البعث والنشور ، بمشاهدة الأهوال الخارقة للعادة فى الأنفس والآفاق ، إلا من ثبت الله قلبه .

و يرى أكثر أهل العلم أن هناك نفختين ، نفخة الفزع المذكورة فى هذه الآية وهى نفخة الصعق المذكورة فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » لأن كلا الأمرين الفزع والخوف ، والصعق وهو الموت يحصلان بها ، ونفخة البعث المذكورة فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » .

(وكل أتوه داخرين) أى وكل هؤلاء الفزعين المبعوثين ، حين النفخة تحضرون الموقف بين يدى رب العزة للسؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، أذلاء صاغرين ، لايتخلف أحدعن أمره كما قال : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » .

وقال : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » وقال : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .

ولما ذكر دخورهم أتبعه بدخور ما هو أعظم منهم فقال :

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) أى وترى الجبال كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تزول عن أماكنها وتسير حثيثا كمر السحاب ، لأن الأجرام الكبار إذا تحركت فى سمت واحد لاتكاد تبين حركتها .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » وقوله : « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » وقوله : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، فيبدل الله الأرض غير الأرض و يغير هيئتها و يسير الجبال عن مقرّها ليشاهدها أهل المحشر ، وهى و إن

دكت عند النفخة الأولى ، فتسييرها إنما يكون لدى النفخة الثانية كما نطق به قوله : « فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا » وقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » .

ثم علل إمكان ذلك وسرعة حصوله بقوله :

(صنع الله الذى أتقن كل شىء) أى ذلك الصنع العظيم صنع الله الذى أحكم كل شىء وأودع فيه من الحكمة ما أودع .

ثم علل ما تقدم من النفخ فى الصور والقيام للحساب ومجازاة العباد على أعمالهم بقوله :

(إنه خبير بما تعملون) أى إنه تعالى ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وهو مجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

ثم بين حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال :

(من جاء بالحسنة فله خير منها) أى من آمن بالله وعمل صالحا فله على ذلك جزيل الثواب من عند ربه فى جنات النعيم ، ويؤمنه من الفزع الأكبر يوم القيامة كما جاء فى الآية : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » وقال : « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » وقال : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » وقد صح تفسير الحسنة هنا بشهادة أن لا إله إلا الله على ما رواه ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن .

(ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) أى ومن أشركوا بالله وعملوا السيئات يكبون على وجوههم فى جهنم ويطرحون فيها، ونحو الآية قوله: « فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ فقال :

(هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟) أى ويقال لهم : هل هذا إلا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا مما يسخط ربكم ويغضبه منكم من شركك به ومعصية له .

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

شرح المفردات

البلدة : هى مكة ، أتلو القرآن : أى أواظب على تلاوته ، من المنذرين : أى المخوّفين قومهم من عذاب الله .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المبدإ والمعاد ، وفصل أحوال القيامة ـ أمر رسوله أن يقول لهؤلاء المشركين هذه المقالة تنبيها لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لامزيد عليه ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته ، غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا ، صلحوا أو فسدوا ، إثارة لهممهم بألطف وجه إلى تدارك أحوالهم وتحصيل ما ينفعهم ، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التى تكفى فى إرشادهم وتشفى عللهم وأمراضهم .

الإيضاح

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) أى قل لهم أيها الرسول إنما أمرت أن أعبد رب مكة التى حرم على خلقه أن يسفكوا فيها دما حراما أو يظلموا فيها أحدا ، وخصها بالذكر لأن أول بيت للعبادة كان فيها ـ دون الأوثان التى تعبدونها كما قال: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الذى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ. وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

وفى هـذا تأنيب لهم على ما يفعلون من أنواع الفجور وفظيع المنكرات ، فإنهم قد تركوا عبادة رب مكة ونصبوا الأوثان فيها وعكفوا على عبادتها .

(وله كل شىء) خلقا وملكا وتصرفا دون أن يشركه فى ذلك أحد .

(وأمرت أن أكون من المسلمين) أى وأمرنى ربى أن أسلم وجهى له ، فأكون من الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المخبتين له فى الطاعة .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(وأن أتلو القرآن) آناء الليل وأطراف النهار ، لتنكشف لى أسراره المخزونة فى تضاعيفه ، وأستطلع أدلة الكون المتفرقة فى آيه ، فأعرف حقائق الحياة ، وسر الوجود ، ويفاض علىّ من فيوضاته الإلهية ، وأسراره القدسية ماشاء الله أن يفيض.

وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قام ليلة يصلى فقرأ قوله تعالى : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ » فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر ، ويتجلى له من مقاصدها ما تسمو به نفسه إلى الملإ الأعلى حتى طلع الفجر .

ونحو الآية قوله : « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » .

(فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) أى فمن اتبعنى واهتدى بهديى وآمن بى وبما جئت به فقد سلك سبيل الرشاد وأمن نقمة ربه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

(ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) أى ومن جار عن قصد السبيل بتكذيبه بى وبما جئت به من عند الله ، فقل إنما أنا من المنذرين فحسب ، وقد خرجت من عهدة الإنذار، وليس علىّ من وبال ضلالكم من شىء ، فإن قبلتم وانتهيتم عما يكرهه ربكم من الشرك ، فحظوظ أنفسكم تصيبون ، وإن كذبتم وأعرضتم عما أدعوكم إليه فعلى أنفسكم تجنون ، وقد بلغتكم ما أمرت بإبلاغه إياكم .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ثم أمره بترغيب قومه وترهيبهم فقال :

(وقل الحمد لله) أى وقل الحمد لله على ما أفاض علىّ من نعمائه التى من أجلّها نعمة النبوة المستتبعة لضروب من النعم الدينية والدنيوية ، ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين الساطعة ، ووفقنى لاتباع الحق الذى أنتم عنه عمون .

(سيريكم آياته فتعرفونها) أى سيريكم ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون بها حقيقة نصحى ويستبين لكم صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد حين لاتجدى المعرفة ، ولا تفيد التبصرة شيئا .

ونحو الآية قوله : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ثم ذيل هذا بتقرير ما قبله من الوعد والوعيد بقوله :

(وما ربك بغافل عما تعملون) أى وما ربك بغافل عما يعمله هؤلاء المشركون ولكنه مؤخر عذابهم إلى أجل هم بالغوه ، لايستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فلا يحزنك تكذيبهم فإنى لهم بالمرصاد ، وأيقن بأنى ناصرك وخاذل عدوك ، ومذيقهم الذل والهوان .

روى أن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مُغْفِلاً شيئا لأغفل ما تُعْفِى الرياح من أثر قدمى ابن آدم وكان الإمام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قلْ علىّ رقيب

ولا تحسبنّ اللهَ يغفل ساعة ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

والحمد لله وصلاته على النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين .

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

من حكم وأحكام وقصص

(١) وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين .

(٢) قصص موسى عليه السلام .

(٣) قصص سليمان عليه السلام .

(٤) قصص ثمود وقصص قوم لوط .

(٥) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى .

(٦) إنكار المشركين للبعث والنشور وقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين .

(٧) علم الله بما فى الصدور .

(٨) حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو إسرائيل .

(٩) قطع الأطماع فى إيمان المشركين وتشبيههم بالعمى الصم .

(١٠) أشراط الساعة وخروج الدابة من الأرض وحشر فوج من كل أمة وتسيير الجبال .

(١١) الجزاء على العمل خيرا كان أو شرا .

(١٢) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : إنه إنما أمر بعبادة رب مكة ، لا بعبادة الأصنام والأوثان .

(١٣) أمره بحمد الله والثناء عليه وطلبه تلاوة القرآن .

(١٤) إنه سبحانه سيرى المشركين آياته فيعرفونها حق المعرفة حين لا يفيدهم ذلك شيئا .

ســـــورة القصص

هى مكية كلها على ما روى الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة ، وقال مقاتل : إلا من آية ٥٢ إلى ٥٥ فمدنية ، وإلا آية ٨٥ فقد نزلت بالجُحْفَة أثناء الهجرة إلى المدينة .

وآيها ثمان وثمانون ، نزلت بعد النمل .

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

(١) إنه سبحانه بسط فى هذه السورة ما أوجز فى السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام وفصل ما أجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء بنى إسرائيل الذى أوجب إلقاء موسى حين ولادته فى اليم خوفا عليه من الذبح ثم ذكر قتله القبطى ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بابنته ، ثم مناجاته لربه .

(٢) إنه أجمل فى السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة ، وبسطه هنا أتم البسط .

(٣) إنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله هنا فى قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ » الآيات .

(٤) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك هنا ، وهكذا من المناسبات التى تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) .

شرح المفردات

نتلو عليك : أى ننزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيعا : أى فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ، ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لايتفقوا ، يستضعف : أى يجعلهم ضعفاء مقهورين ، والطائفة هنا هم بنو إسرائيل ، ونمن: أى نتفضل ، والأئمة: واحدهم إمام وهم من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، ويقال مكّن له إذا جعل له مكانا موطأ ممهدا يجلس عليه ، والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها، وهامان وزير فرعون ، يحذرون : أى يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهُلْكهم على يد مولود من بنى إسرائيل .

الإيضاح

(طسم) تقدم أن قلنا إن أجلّ الآراء فى هذه الحروف المقطعة أنها حروف استعملت أول الكلام للتنبيه ، كما استعملت (يا) فى النداء و (ألا) ونحوها للتنبيه ، وينطق بها بأسمائها هكذا (طاسين ميم) .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه آيات الكتاب الذى أنزلته إليك أيها الرسول واضحا جليا كاشفا لأمور الدين وأخبار الأولين ، لم تتقوله ولم تتخرصه كما زعم المشركون المنكرون له ولرسالة من أوحى إليه .

ثم ذكر ما هو كالدليل على أنه وحى يوحى وليس هو من وضع البشر فقال :

(نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) أى نتلو عليك بعض أخبار موسى ومحاجته لفرعون وغلبته إياه بالحجة ، وإخبار فرعون وجبروته وطغيانه وكيف قابل الحق بالباطل ولم تجدِ معه البراهين الساطعة والمعجزات الواضحة ، فأخذناه أخذ عزيز مقتدر فكانت عاقبته الدمار والوبال وأغْرِق ومن معه من جنده أجمعون، نتلوها عليك تلاوة على وجه الحق كأنك شاهد حوادثها ، مبصر وقائعها ، تصف ما ترى وتبصر عيانا ، لقوم يصدقون بك وبكتابك لتطمئن به قلوبهم وتُثلج به صدورهم ويعلموا أنه الحق من ربهم وأن سنته فيمن خالفك وعاداك من المشركين هى سنته فيمن عادى موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل، وأن النصر دائما للمتقين ويخزى الله المكذبين : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

وإنما جعل التلاوة للمؤمنين وهو يتلى على الناس أجمعين ، لبيان أنه لا يعتبر بها إلا من كان له قلب واع وأذن سامعة تذكّر وتتعظ بآياته ، أما من أعرض عنه ، وأبى واستكبر ، وقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلا تفيده الآيات والنذر ، ولا يلقى له بالا ، ولا يعى ما فيه من حكمة ، ولا ما يسوقه من عبرة ، فهو على نحو ما حكى الله عنهم : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » .

ثم فصل هذا المجمل ووضحه بقوله :

(إن فرعون علا فى الأرض) أى إن فرعون تجبر فى مصر وقهر أهلها وجاوز الحدود فى الظلم والعدوان وساس البلاد سياسة غاشمة .

ومما مكّن له فى ذلك ما بينه الله سبحانه بقوله :

(وجعل أهلها شيعا) أى وفرقهم فرقا مختلفة ، وأحزابا متعددة ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء ، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجمعوا على رأى ، ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض ، وبذا يلين له قيادهم ، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم ، وتلك هى سياسة الدول الكبرى فى العصر الحاضر ، وذلك هو دستورها فى حكمها

لمستعمراتها ، وقد نقش حكامها فى صدورهم واتجاههم فى سياستهم « فرق تسد » وطالما أجدت معهم فى سياسة تلك البلاد ، وهى أعظم نفعا فى البلاد التى يعمها الجهل ويطغى على أهلها حب الظهور ويرضون بالنُّفَاية والقشور .

رُحْمَاكَ اللهم رحماك ، بسطت لعبادك سنتك فى الأكوان ، وأبنت لهم طبيعة الإنسان ، وأنه محب للظلم والعدوان .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعـــلة لا يظلم

(يستضعف طائفة منهم) أى يجعلهم أذلاء مقهورين ، يسومهم الخسف ، ويعاملهم بالعسف ، وهم بنو إسرائيل .

ثم فسر هذا الاستضعاف بقوله :

(يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) أى يذبح أبناءهم حين الولادة ، وقد وكل بذلك عيونا تتجسس ، فكلما ولدت امرأة منهم ذكرا ذبحوه ، ويستبقى إناثهم ، لأنه كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يتمرسون مختلف الصناعات ، وبأيديهم زمام المال ، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة وغلبوا المصريين عليها ، والغلب الاقتصادى فى بلد ما أشد وقعا وأعظم أثرا فى أهلها من الغَلَب الاستعمارى ، ومن ثمّ لم يشأ أن يقتل النساء .

روى السُّدّى أن فرعون رأى فى منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل ، فسأل علماء قومه ، فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه ، فأخذ يفعل ما قص علينا الكتاب الكريم .

قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذبا فلا داعى للقتل .

ولا يعنينا من أمر هـــذه الرواية شىء ، فسواء صحت أو لم تصح ، فإن السرّ المعقول ماقصصناه عليك أوّلا .

ثم علل اجتراحه لتلك الجرائم و إزهاقه للأرواح البريئة بقوله :

(إنه كان من المفسدين) ومن ثم سولت له نفسه أن يفعل ما فعل من تلك الفظائع وقتل سلائل الأنبياء بلا جريمة ارتكبوها ، ولا ذنب جنوه ، وقد كانت هناك وسائل عديدة ليصل بها إلى اتقاء شرور اليهود على حسب مايزعم ، وكان له فيها غُنْيَة عن سفك الدماء ، ولكن قساة القلوب غلاظ الأكباد تتوق نفوسهم إلى الوُلوغ فى الدم ويجعلونه الترياق الشافى لحزازات نفوسهم ، وسخائم أفئدتهم .

ثم ذكر ما أكرم به هذا الشعب وما أتاح له من السلطان الدينى والدنيوى فأسسوا دولة عظيمة فى بلاد الشام وصاروا يتصرفون فى أرض مصر كما شاءوا فقال :

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) أى ونريد أن نتفضل بإحساننا على من استضعفهم فرعون وأذلهم ، وننجيهم من بأسه ونريهم فى أنفسهم وفى أعدائهم فوق ما يحبون ، وأكثر مما يؤملون .

(ونجعلهم أئمة) مقتدى بهم فى الدين والدنيا .

(ونجعلهم الوارثين) لملك الشام لاينازعهم فيه منازع ، وقد جاء فى آية أخرى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » وفى ثالثة « كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

(ونمكن لهم فى الأرض) أى ونسلطهم على أرض مصر يتصرفون فيها كيفما شاءوا بتأييدهم بكليم الله ثم بالأنبياء من بعده .

ثم بين ما نال عدوهم من النكال والوبال فقال :

(ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أى ونرى أولئك الأقوياء والأعداء الألداء على أيدى بنى إسرائيل من المذلة والهوان وما كانوا يتوقعونه من زوال الملك والسلطان على يد مولود منهم ، ولكن لاينجى حذر من قدر ، فنفذ حكم الله الذى جرى به القلم من القدم على يد هذا الغلام الذى احترز من وجوده وقتل بسببه ألوفا من الولدان ، وكان منشؤه ومرباه على فراشه وفى داره ، وغذاؤه

من طعامه وكان يدلله ويتبناه ، وحتفه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه ، ليعلم أن رب السموات والأرض هو الغالب على أمره ، الشديد المحال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وخلاصة ما سلف :

(١) إن فرعون علا فى الأرض . (٢) استضعف حزبا من أحزاب مصر .
(٣) قتل الأبناء . (٤) استحيا النساء . (٥) إنه كان من المفسدين .

وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكرمة لبنى إسرائيل :

(١) إنه منّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته :

(٢) إنه جعلهم أئمة مقدمين فى الدارين .

(٣) إنه ورّثهم أرض الشام .

(٤) إنه مكن لهم فى أرض الشام ومصر .

(٥) إنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم على أيديهم .

هذان عظمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » .

انظر إلى الدولتين الفارسية والرومية وما كان لهما من مجد باذخ وملك واسع ، كيف دالت دولتهما وذهب ريحهما بظلم أهلهما وتقسيم ملكهما ، ثم قامت بعدهما الدولة العربية وعاشت ما شاء الله أن تعيش ، ثم قام بعدها بنو عثمان وملكوا أكثر مما كان بيد الأمة العربية ثم هرمت دولتهم وشاخت واستولت عليها ممالك أوربا . « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) .

شرح المفردات

الوحى : الإلهام كما جاء فى قوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » والخوف : غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل ، والحزن : (بفتحتين و بضم فسكون كالرُّشْد والرَّشَد والسُّقْمُ والسَّقَمُ) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل ، و اليم : البحر ، والمراد هنا نهر النيل ، والالتقاط : أخذ الشيء فجأة من غير طلب له ، والمراد من الخطأ هنا : الخطأ فى الرأى وهو ضد الصواب والمراد به الشرك والعصيان بالله ، وقرت العين به : فرحت به وسرت ، فارغا : أى خاليا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه نحو ما جاء فى قوله : « وَأَفْئِدَتُهُمْ

هَوَاءٌ » أى خلاء لاعقول بها ، والإبداء : إظهار الشيء ، والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته ، وقصيه : أى اقتفى أثره وتتبعى خبره ، فبصرت به : أى أبصرته ، عن جنب : أى عن بعد ، لايشعرون : أى لايدرون أنها أخته ، حرمنا : أى منعنا، يكفلون : أى يضمنون رضاعه والقيام بشئونه ، والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ما ينفعه فى غذائه وتربيته ولا يقصرون فى خدمته .

الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه أنه سيمن على بنى إسرائيل الذين استضعفوا فى الأرض ، أردف ذلك بتفصيل بعض نعمه عليهم فقال :

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) أى وألهمناها وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه عن عدوه وعدوك .

(فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى) أى فإذا خفت عليه من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون أولاد بنى إسرائيل اتباعا لأمره أو من الجيران أن يَنُمّوا عليه إذا سمعوا صوته ، فألقيه فى النيل ولا تخافى هلاكه ، ولا تحزنى لفراقه ، وقد تقدم فى سورة طه بيان الكيفية التى ألقته بها فى اليم .

روى أن دارها كانت على الشاطئ فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وألقته فى النيل وليس هناك من دليل على الزمن الذى قضته بين الولادة والإلقاء فى اليم .

ثم وعدها سبحانه بما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤه غبطة وسرورا ، وهو رده إليها وجعله رسولا نبيا فقال :

(إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) أى إنا رادو ولدك إليك للرضاع وتكونين أنت مرضعه ، وباعثوه رسولا إلى هذا الطاغية وجاعلو هلاكه ونجاة بنى إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه .

وهذه الآية اشتملت على أمرين : أرضعيه وألقيه ، ونهيين : لاتخافى ولا تحزنى ،

وخبرين : إنا رادوه إليه وجاعلوه . و بشارتين فى ضمن الخبرين : وهما الرد والجعل من المرسلين ، حكى عن الأصمعى قال : سمعت أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قبّلت إنسانا بغير حله

مثل الغزال ناعما فى دَلّه فانتصف الليل ولم أصلّه

فقلت : قاتلك الله ماأفصحك! قالت أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: وأوحينا إلى أم موسى الآية ؟ فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين و بشارتين .

ثم ذكر صدق وعده ومقدمات نجاته فقال :

(فالتقطه آل فرعون) أى فأخذه أهل فرعون أخذ اللقطة التى يعنى بها وتصان عن الضياع صبيحة الليل الذى ألقى فيه بالتابوت .

روى أن الموج أقبل به يرفعه مرة و يخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى امرأته إلى الشط فوجدن التابوت فأدخلنه إليها وظنن أن فيه مالا ، فلما فتحنه وجدن فيه غلاما فوقعت عليها رحمته فأحبته .

ولما أخبرت فرعون به أراد أن يذبحه إذ قال إنى أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل وأن يكون هلاكنا على يديه ، فلم تزل تكلمه حتى تركه لها .

ثم ذكر سبحانه أن العاقبة كانت ضد ما قصدت فقال :

(ليكون لهم عدوا وحزنا) أى لتكون عاقبة أمره كذلك إذ أراد الله هذا ، وهذا كما تقول لآخر تؤنبه على فعل كان قد فعله وهو يظن نفسه محسنا فيه وأدى الأمر إلى مساءة وضرّ قد لحقه : فعلت هذا لضر نفسك ، وهو قد كان حين الفعل راجيا نفعه غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما يرجو ، وهذا جار على سنن العرب فى كلامهم فيذكرون الحال بالمآل ، قال شاعرهم :

وللمنايا تربى كل مُرْضِعَةٍ ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنيها

وقال آخر :

فللموت تغذو الوالدات سِخَالَهَا كما لخراب الدهر تُبْنَى المساكن

فعاقبة البناء الخراب وإن كان فى الحال مفروحا به ، وعاقبة تغذية السخال الذبح وإن كانت الآن تغذى لتسمن .

والخلاصة — إن الله قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا ، ويستبين لهم بطلان حذرهم منه .

وعداوته إياهم مخالفته لهم فى دينهم وحملهم على الحق ، وحزنهم بزوال ملكهم على يديه بالغرق بعد أن يُظْهِرَ فيهم الآيات ولا يستجيبوا لدعوته ، فتحل بهم القوارع كما هى سنة الله فى خلقه المكذبين .

ثم بين أن القتل الذى يفعله فرعون وهامان وجنوده لبنى إسرائيل حمق وطيش فقال :

(إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أى إن هؤلاء كان من دأبهم الخطأ وعدم حسن التصرف فى العواقب ، ومن ثم قتلوا لأجله ألوفا ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون .

ثم حكى سبحانه قول امرأة فرعون حين رآه فرعون وهمّ بقتله .

(وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك لا تقتلوه) أى قالت تخاصم عنه وتحببه إلى فرعون : إنه مما تقرّبه العيون وتفرح لرؤيته القلوب فلا تقتلوه .

ثم ذكرت العلة التى قالت لأجلها ما قالت .

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) أى لعلنا نصيب منه خيرا ، لأنى أرى فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة ، كما قال الشاعر :

فى المهد ينطق عن سعادة جَدّه		أثر النجابة ساطع البرهان

أو نتخذه ولدا لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التى تجعله أهلا لتبنى الملوك له ، وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها .

ثم بين سبحانه أنهم لايدرون خطأهم فيما صنعوا فقال :

(وهم لايشعرون) أى وهم لا شعور لهم بما خبّأه لهم القدر وبما يئول إليه أمرهم

معه من عظائم الأمور التى تؤدى إلى هلاكهم ، وإنما عِلْم ذلك لدى علام الغيوب فهو الذى يدرى ما أراد بالتقاطهم إياه من الحكم البالغة ، والحجج القاطعة .

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال من لقيه موسى عليه السلام خبّر عن حال من فارقه بقوله :

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) أى إنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها شعاعا ، لما دهمها من الجزع والحزن وتوقع الهلاك الذى لا مندوحة منه جريا على عادته مع أنداده ولداته ، ولولا أن عصمناها وثبتنا قلبها لأعلنت أمرها وأظهرت أنه ابنها وقالت من شدة الوجد (وا ولداه) وقد فعلنا ذلك لتكون من المصدّقين بوعدنا : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

ثم أخبر عن فعلها فى تعرف خبره بعد أن أخبر عن كتمها إياه بقوله :

(وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون) أى وقالت لابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها : تتبعى أثره ، وتشممى خبره ، فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله وأنها أخته .

ثم شرع سبحانه يذكر أسباب رده إليها فقال :

(وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) أى ومنعنا موسى المراضع من أول أمره ، فقالت أخته حين رأت اهتمامهم برضاعه : أتحبون أن أرشدكم إلى أهل بيت يأخذونه ويتولون تربيته ويقومون بجميع شئونه ولا يقصرون فى خدمته والعناية بأمره .

روى عن ابن عباس أنها لما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها : ما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت هم يفعلون ذلك رغبة منهم فى سرور الملك ورجاء عطائه ، وبذا خلصت من أذاهم وذهبوا معها إلى منزلهم ودخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك

فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها العطاء الجزيل، ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لى بعلا وأولادا ولاأستطيع المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت، فأجابتها إلى ما طلبت، وأجرت عليها النفقة والصلات والكسا وجزيل العطاء ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع، وقد جاء فى الأثر «مثل الذى يعمل الخير و يحتسب كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».

و إلى هذا أشار سبحانه بقوله:

(فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن) أى فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون، لتقر عينها بابنها إذا رجع إليها سليما، ولا تحزن على فراقه إياها.

(ولتعلم أن وعد الله حق) أى ولتعلم أنّ وعد الله الذى وعدها حين قال لها: (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) حق لامرية فيه ولا خلف وقد شاهدت بعضه، وقاست الباقى عليه.

و برده إليها تحققت أنه سيكون رسولا، فربّته على ما ينبغى لمثله من كامل الأخلاق وفاضل الآداب.

(ولكن أكثرهم لايعلمون) حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة فى الدنيا والآخرة، إذ قد يكون الشىء بغيضا إلى النفوس ظاهرا محمود العاقبة آخرا كما قال: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا».

وقد حدث هذا فى أمر موسى، فقد ألقى فى اليم ثم رد إلى أمه مكرّما ثم كان له من الوجاهة فى الدنيا والآخرة ما كان.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) .

شرح المفردات

واحدة الأشد : شدة كأنعم ونعمة ، والشدة : القوة والجلادة ، و بلوغ الأشد : استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتدّ به ، والاستواء : اعتدال العقل وكماله ، و يختلف ذلك باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال ، والحكم : الحكمة ، والمدينة : هى مصر ، على حين غفلة : أى فى وقت لايتوقعون دخولها فيه ، من شيعته : أى ممن شايعه وتابعه فى الدين وهم بنو إسرائيل ، من عدوه : أى من مخالفيه فى الدين وهم القبط ، فاستغاثه : أى طلب غوثه ونصره ، فوكزه : أى فضربه بجُمْع يده ، أى بيده مجموعة الأصابع ، فقضى عليه أى فقتله وأنهى حياته ، من عمل الشيطان : أى من تزيينه ، مبين : أى ظاهر العداوة والإضلال ، فاغفر لى : أى فاستر ذنوبى ، بما أنعمت علىّ : أى أقسم بنعمك علىّ ، ظهيرا : أى معينا ، يترقب : أى ينتظر ما يناله من أذى ، استنصره : أى طلب نصره ومعونته ، يستصرخه : أى يطلب

الاستغاثة برفع الصوت ، غوىٌّ : أى ضال ، يبطش : أى يأخذ بصولة وسطوة ، والجبار : هو الذى يفعل ما يفعل دون نظر فى العواقب ، من المصلحين : أى ممن يبغون الإصلاح بين الناس ويدفعون التخاصم بالحسنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه فى التابوت وإلقائه فى النيل وإنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى إسرائيل - أردفه بذكر ما أنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ، ثم بذكر ما حصل منه من قتل المصرى الذى اختصم مع اليهودى بوكزه بجُمْع يده وكان ذلك سببا فى موته ، ثم طلبه المغفرة من ربه على ما فعل ، ثم تصميمه وعزمه ألا يناصر غويا مجرما ، ثم أعقب ذلك بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقد هم موسى بإغاثته أيضا ، فقال له المصرى أأنت تريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين ؟.

الإيضاح

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) أى ولما قوى جسمه واعتدل عقله آتيناه فقها فى الدين وعلما بالشريعة كما قال تعالى: «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ » وكما جزينا موسى على طاعته إيانا وإحسانه بصبره على أمرنا - نجزى كل من أحسن من عبادنا وأطاع أمرنا وانتهى عما نهيناه عنه .

وبعد أن أخبر بتهيئته للنبوة ذكر ما كان السبب فى هجرته إلى مدين وتوالى الأحداث الجسام عليه فقال :

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) أى ودخل مصر آتيا من عين شمس فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة .

روى أنه دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ، لأنه كان قد خالفهم فى دينهم وعاب ما كانوا عليه .

ثم أبان ما حدث منه حينئذ فقال :

(فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان) أى فوجد فى مصر رجلين أحدهما من بنى إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباخ فرعون وكان قد طلب منه أن يحمل حطبا المطبخ فأبى ، فطلب الإسرائيلى من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى ، فضربه موسى بجمع يده فى صدره وحنكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزيين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه فقال :

(إنه عدو مضل مبين) أى إنه عدو فينبغى الحذر منه ، مضل لايقود إلى خير بيّن العداوة والإضلال .

ثم أخبر بندم موسى على قتله نفسا لم يؤمر بقتلها بقوله :

(قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) أى قال رب إنى ظلمت نفسى بقتل نفس لايحل قتلها ، فاغفر لى ذنبى واستره ولا تؤاخذنى بما فعلت ، قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر اهـ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه : إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، وإنما عده ذنبا وقال : (إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) من أجل أنه لاينبغى لنبى أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق : ما أسألكم ، وأركبكم للكبيرة . سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الفتنة تجىء من ها هنا — وأومأ بيده نحو المشرق — من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذى قتل من

آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » .

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال :

(فغفر له) أى فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه .

وبعدئذ ذكر ما هو كالعلة لما قبله فقال :

(إنه هو الغفور الرحيم) أى إنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه ، المتفضل عليه بالعفو عنها ، الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ، ورجع عن حوبته .

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :

(قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين) أى قال رب اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ بعفوك عن قتل هذه النفس لأمتنعن عن مثل هذا الفعل ، ولن أكون معينا للمشركين فأصحبهم وأكثر سوادهم ، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد ، ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون .

وقد يكون المراد لأمتنعن عن مظاهرة من تئول مظاهرته إلى الجُرْم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به .

ونحو الآية قوله : « وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

(فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين) أى فصار موسى فى تلك المدينة التى قتل فيها القبطى خائفا من جنايته التى جناها بقتله النفس التى قتلها ، وصار يتحسس الأخبار ويسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وما هم بالغوه به ؟ وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به ، وإذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى

يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى إنك لذو غواية وضلال لاشك فيـه ، وقد تبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ، ثم دنا منهما .

(فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوهما بالشدة والعنف قال له منكرا : أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت ؟ وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

(إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) أى وما تريد إلا أن تكون قاهرا عاليا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر فى العواقب ، ولا تريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيـه صلاح أهلها ودفع تخاصمهم بالحسنى .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَاخَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَاسَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَاتَخَفْ

نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) .

شرح المفردات

أقصى المدينة : أى أبعدها مكانا ، يسعى : أى يسرع ، الملأ : أشراف الدولة ووجوهها ، يأتمرون بك : أى يتشاورون فى أمرك قال الأزهرى ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضا كما قال : « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ » وقال النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يُؤْتَمَرْ

يترقب : أى يلتفت يَمْنَة وَيَسْرة ، توجه إلى الشىء : صرف وجهه إليه ، تلقاء مدين : أى جهتها ، ورد : أى وصل ، والمراد بماء مدين : البئر التى كانوا يستقون منها ، أمة : أى جماعة ، تذودان : أى تطردان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء ، قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأىّ عصًا تذودُ

ما خطبكما : أى ما شأنكما ولم لاتردان مع هؤلاء ؟ قال رؤبة : يا عَجَبًا ماخَطْبُه وَخَطْبِي ؟ يصدر الرعاء : أى يصرفون مواشيهم عن الماء ، والرعاء : واحدهم راع ، تولى : أى انصرف ، والظل : ظل شجرة كانت هناك ، والخير يكون بمعنى الطعام كما فى الآية وبمعنى المال كما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » وبمعنى القوة كما قال : « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ

تُبَّعٍ » و بمعنى العبادة كقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » فقير : أى محتاج والاستحياء : شدة الحياء ، ليجزيك : أى ليثيبك ، والقصص : الحديث المقصوص أى المخبر به ، أنكحك : أزوجك ، ويقال أجرته : أى كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا ، والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة ، قال زهير ابن أبى سلمى :

لمن الديار بقِنَّة الحِجْر أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دهر

أشق عليك : أى أدخل عليك مشقة ، الأجلين : أى الأطول والأقرب ، فلا عدوان: أى فلا حرج ، وكيل : أى شهيد .

المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون و بطانته إليه ، فأتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله ، وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه ، فأسرع إليه يخبره الخبر و ينصحه بالهرب ، فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ما قصه الله علينا فى هذه الآيات ، إلى أن رجع إلى مصر وقد أوتى النبوة وهو قافل فى طريقه .

الإيضاح

(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) أى جاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم ، يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : يا موسى : إن الملك و بطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد ، و ينصبون لك الحبائل ، يريدون أن يقتلوك ، فالبدارَ البدارَ والهربَ

الهربَ قبل أن يقبضوا عليك و يُنفِذوا ما دبروه و يقتلوك ، فاخرج من المدينة مسرعا و إنى لك لناصح أمين .

فانتصح بنصحه وتقبل قوله .

(فخرج منها خائفا يترقب) أى فخرج من مدينة فرعون خائفا يترقب لحوق الطالبين و يتلفت يمينا و يسارا و ينظر أيتبعه أحد ؟ .

ثم لجأ إلى الله تعالى علما منه أن لاملجأ إلا إليه .

(قال رب نجنى من القوم الظالمين) أى قال : رب نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور فى غير مواضعها ، فيقتلون من لايستحق القتل ومن لايُجْرِم إلى أحد ، فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين ، روى أن فرعون لما بعث فى طلبه قال : (اركبوا ثَنِيّات الطريق) فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالا ففاتهم ونجا من بغيهم .

ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

(ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى ولما اتجه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون ، قال : رب اهدنى إلى سواء السبيل ، وأرشدنى إلى الطريق القويم ، ونجنى من هؤلاء الظلمة ؛ وقد قال هذا توكلا على الله وثقة بحسن توفيقه، وقد كان لايعرف الطريق ، فعنّ له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرَيْن ، وقالوا : المُرِيب لايسلك أعظم الطرق، بل يأخذ بُنَيّاتها (أضيقها غير المشهور منها) وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو حاف لايطعَم إلا ورق الشجر ، إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها .

ثم ذكر سبحانه ما جرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يرِدُه رِعاء الشاء فوجد جماعة منهم

يسقون نعمهم ومواشيهم ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها، فلما رآهما موسى كذلك رقّ لهما ورحمهما، قال ما خبركما لم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟ فأجابتاه ، قالتا : لانسقى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى ، وأبونا شيخ كبير لايستطيع السقى بنفسه ، فنحن نلجأ إلى ماترى ، تشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر ما قبله بعد أن سمع هذا القصص

(فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) أى فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل و يستريح وناجى ربه قائلا : إنى لمحتاج إلى شىء تنزله إلىّ من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال : لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شق تمرة ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .

فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه .

(فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أى فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سَلْفعا من النساء (جريئة على الرجال) خَرّاجة ولاّجة .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعلتها بالجزاء حتى لايتوهم من كلامها شىء من الريبة ، كما أن فى كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لايخفى .

وقد اختلف فى الأب من هو؟ فقيل هو شعيب عليه السلام وهو بعيد كل البعد ، لأن شعيبا كان قبل موسى بزمن طويل بدليل قوله تعالى لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » وقد كان هلاك قوم لوط فى عصر الخليل عليه السلام كما نص

على ذلك الكتاب الكريم ، وكان بين إبراهيم وموسى ما يزيد على أربعمائة سنة ، وفى كتب اليهود أن اسمه يثرو ؛ وفى التوراة فى الفصل الثانى من السفر الثانى مانصه :

ولما سمع بهذا الخبر (خبر قتل القبطى) طلب أن يقتل موسى فهرب من بين يديه وذهب إلى مدين وجلس على بئر ماء ، وكان لكاهن مدين سبع بنات فجاءت وأدلت الدلاء وملأت الأحواض لسقى غنم أبيهن ، فلما جاء الرعاة طردوهن ، فقام موسى فأغاثهن وسقى غنمهن ، فلما جئن إلى رعوائيل أبيهن قال : ما بالكن أسرعتن المجىء اليوم ؟ الخ .

وفى الفصل الثالث : وكان موسى يرعى غنم يثرو حميه كاهن مدين .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا فى الأجر .

(فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أى فلما جاء موسى هذا الشيخ وحدثه حديثه مع فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم و إذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهربه منهم بعد الذى علمه ــ قال له : لا تخف من حولهم وطولهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لا سلطان لهم علينا ، ولسنا فى دائرة ملكهم .

ولما أمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

(قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين) أى قالت واحدة من بناته : استأجر موسى ليرعى عليك ما شيتك ، فإن خير من تستأجره للرعى القوىُّ على حفظ الماشية والقيام عليها فى إصلاحها وصلاحها ، الأمينُ : الذى لا تخاف خيانته فيما تأتمنه عليه منها .

ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة ، لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية فى القائم بأداء أمر من الأمور تكفل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف فى قوله : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وأبو بكر فى عمر .

ولما أعلمت البنت الشيخ بذلك :

(قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتىّ الحاضرتين أمامك ، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما ، على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنوات ترعى لى فيها غنمى فإن أتممت الثمانى السنين التى شرطتها عليك فجعلتها عشرا فإحسان من عندك ، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدنى إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا .

وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولىّ المرأة لها على الرجل ، فقد عرض عمر ابن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر «لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر» ، الحديث أخرجه البخارى .

فأجابه موسى :

(قال ذلك بينى وبينك) أى قال ما شرطت علىّ فلك ، وما شرطت من تزوج إحداهما فلى والأمر على ذلك لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت علىّ ولا أنت عما شرطت على نفسك .

ثم فسر هذا بقوله :

(أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ) أى أىّ المدتين قضيت ، الثمانى الحجج أو العشر وفرغت منها فوفيتكها برعى غنمك وماشيتك فليس لك أن تطالبنى بأكثر منها .

روى «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أى الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبرهما» رواه الخطيب فى تاريخه.

ثم جعل الله شهيدا على صدق ما يقول كل منهما فقال:

(والله على ما نقول وكيل) أى والله شهيد على ما أوجب كل منهما على نفسه لصاحبه.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢).

شرح المفردات

قضى الأجل: أى أتم المدة المضروبة بينهما، آنس: أى أبصر إبصارا بينا لا شبهة فيه، جذوة: أى عود غليظ فى رأسه نار، تصطلون: أى تستدفئون، والبقعة: القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها، والجان: الحية الصغيرة التى توجد فى كثير من الدور ولا تؤذى، ولم يعقب: أى ولم يرجع، اسلك يدك: أى

أدخلها ، والجيب : الفتحة فى القميص ونحوه من حيث يُخْرَج الرأس ، سوء : أى عيب ، والرهب : المخافة .

المعنى الجملى

بعد أن قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما عزم على الرحيل إلى مصر لزيارة أهله وذوى قرابته ، ومما جرأه على ذلك طول مدة الجناية وظنه أنه قد نسى أمره وكأنه أصبح فى خبر كان .

الإيضاح

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) أى فلما وفى موسى صاحبه الأجل الذى اتفق عليه مع حميه تحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره وسلك بهم الطريق فى ليلة مَطِرة وظلمة باردة ونزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئا ، فعجب لذلك ، و بينا هو كذلك رأى نارا تضىء عن بعد فقال لأهله انتظروا قليلا، إنى أبصرت نارا لعلى آتيكم منها بخبر الطريق وكانوا قد ضلوا عنه ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها نار لتستدفئوا بها من البرد وكان الوقت شتاء .

(فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين) أى فلما جاء إلى النار التى أبصرها من جانب الطور ناداه ربه من جانب الوادى الأيمن : أى عن يمين موسى فى البقعة المباركة من ناحية الشجرة : ياموسى إنى أنا الله ربك ورب العالمين جميعا .

وقد خلق الله فيه علما يقينيا بأن المتكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جعلت الشجرة مباركة ، لأنه تعالى كلم موسى هنالك و بعثه نبيا .

ثم أمره الله أن يلقى عصاه لديه آية بقوله :

(وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبرا ولم يعقب) أى ونودى بأن ألق عصاك فألقاها فصارت حية تسعى ، فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان من الحيات ، لسرعة عدوها وخفة حركتها ـ ولّى هاربا منها ولم يرجع .

ثم نودى بما يهدئ روعه :

(يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) أى يا موسى أقبل إلىّ ولا تخف مما تهرب منه ، فإنك آمن من أن ينالك سوء ، إنما هى عصاك أردنا أن نريك فيها آية كبرى ، لتكون عونك لدى الطاغية الجبار فرعون ملك مصر .

ثم أراه آية أخرى زيادة فى طمأنينته وأمره بقوله :

(اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أى أدخل يدك فى جيب قميصك تخرج ولها شعاع يضىء من غير عيب ولا برص .

ولما اعترى موسى الخوف من العصا تارة، ومن الدهشة بشعاع يده مرة أخرى ، أمره ربه أن يضع يده على صدره ليزول ما به من الخوف فقال :

(واضمم إليك جناحك من الرهب) أى وضع يدك على صدرك يذهب مابك من خوف ، كما يشاهد من حال الطائر ، إذا خاف نشر جناحيه ، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه ، وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان .

قال ابن عباس : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم بقوله :

(فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه) أى فما تقدم من جعل العصا حية تسعى وخروج اليد بيضاء من غير سوء بعد وضع اليد فى الجيب ـ دليلان واضحان على قدرة ربك وصحة نبوة من جريا على يديه ، أرسلناهما إلى فرعون وقومه.

ثم ذكر العلة فى إظهار الآيات لهم بقوله :

(إنهم كانوا قوما فاسقين) أى إنهم قوم خارجون عن طاعة الله ، مخالفون

لأمره ، منكرون لكل دين جاء به الرسل ، فكانوا جديرين بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين .

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِى رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

الردء : العون ، يقال ردأته على عدوه : أى أعنته عليه ، قال الشاعر :

ألم تر أن أصرمَ كان ردْئى وخيرَ الناس فى قُلٍّ ومال

يصدقنى : أى يوضح ما قلته ويقيم عليه الأدلة ويجادل المشركين ، والعضد : ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بشد العضد : التقوية والإعانة . قال طرَفة :

بنى لُبَيْنَى لستُمُ بيد إلا يدًا ليست لها عَضُدٌ

والسلطان : التسلط والغلبة ، مفترى : أى مختلق ، عاقبة الدار : أى العاقبة المحمودة فى الدار الدنيا التى تفضى إلى الجنة .

المعنى الجملى

اعلم أنه لما قال سبحانه لموسى فذانك برهانان من ربك علم أنه سيذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه ــ حينئذ طلب منه أن يؤتيه ما يقوّى به قلبه ويزيل

خوفه من فرعون ، لأنه إنما خرج من ديار مصر فرارا منه وهربا من سطوته ، فيرسل معه أخاه هٰرون وزيرا فأجابه إلى ما طلب ، وأرسله هو وهرون إلى فرعون وملئه ومعهما المعجزات الباهرة ، والأدلة الساطعة ، فلما عاينوا ذلك وأيقنوا صدقه لجئوا إلى العناد والمكابرة فقالوا ما هذا إلا سحر مفتمل ، وما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، فقال لهم موسى : ربى أعلم بالمهتدى منا ومنكم وسيفصل بينى و بينكم و يجعل النصر والتأييد للصالحين من عباده .

الإيضاح

(قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون. وأخى هٰرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) أى قال يارب إنى قتلت من قوم فرعون نفسا فأخاف إن أتيتهم ولم أبِنْ عن نفسى بحجة أن يقتلونى ، لأن ما فى لسانى من عقدة يحول بينى و بين ما أريد من الكلام ، وأخى هرون هو أفصح منى لسانا وأحسن بيانا ، فأرسله معى عونا يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، و يجيب عن الشبهات ، و يجادل هؤلاء الجاحدين المعاندين ، و إنى أخاف أن يكذبونى ولسانى لايطاوعنى حين الحاجة .

فأجابه سبحانه إلى ما طلب .

(قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما) أى سنقو يك ونعينك بأخيك ونجعل لكما تسلطا عظيما وغلبة على عدوكما ، فلا يصلون إليكما بوسيلة من وسائل الغَلَب .

(بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) أى أنتما ومن تبعكما الغالبون بحججنا وسلطاننا الذى نجعله لكما .

وفى هـذا دليل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشىء مما هددهم به لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين أنفسهم فى سبيل الله .

ثم أبان ما صدر من فرعون عقب مجىء موسى إليه فقال :

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) أى فحين جاء موسى بالحجج البالغة الدالة على صدق رسالته ـ فرعونَ وملأه، قالوا ماهذا إلا سحر افتريته من عندك وانتحلته كذبا و بهتانا ، وما سمعنا بهذا الذى تدعونا إليه من عبادة إله واحد فى أسلافنا وآبائنا الذين مضوا من قبلنا .

وهذا تحكيم لعادة التقليد التى أضلت كثيرا من الناس ، على أنهم قد كذبوا وافتروا فإنهم سمعوا بذلك فى عهد يوسف عليه السلام (وما بالعهد من قِدَم) فقد قال لهم الذى آمن : « يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ـ إلى أن قال ـ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » .

ولما كذبوه كفرا وعنادا وهم الكاذبون رد عليهم بما أشار إليه بقوله :

(وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) أى وقال موسى مجيبا فرعون وملأه : ربى أعلم بالمحق منا يا فرعون من المبطل ، ومن الذى جاء بالحق الذى يوصل إلى سبيل الرشاد ، ومن الذى له العقبى المحمودة فى الدار الآخرة ؟ .

وفى هذا الأسلوب من أدب الخطاب فى الحجاج والمناظرة ما لا يخفى ، فهو لم يؤكد أن خصمه فى ضلال كما لم ينسبه إلى نفسه بل ردده بينهما وهو يعلم أنه لأيهما ، وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبى صلى الله عليه وسلم للمشركين بقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

ثم علل هذا بأن سنة الله قد جرت بأن المخذول هو الكاذب فقال :

(إنه لا يفلح الظالمون) أى إنه لا ينجح الكافرون ولا يدركون طَلِبَتهم ، وفى هذا إيماء إلى أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة ، بل يحصلون على ضد ذلك ، وهذا غاية الزجر والتهديد لكفهم عن العناد .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) .

شرح المفردات

هامان : وزير فرعون ، صرحا : أى قصرا عاليا ، أطلع : أى أصعد وأرتقى ، فنبذناهم : أى طرحناهم ، أئمة : واحدهم إمام، وهومن يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا، يدعون إلى النار : أى إلى ما يوجبها من الكفر والمعاصى ، لعنة : أى طردا من الرحمة ، من المقبوحين : أى المخزيين ، يقال قبحه الله : أى نحاه من كل خير ، وقَبَحْتُ وجهه وقبّحت بمعنى ، قال الشاعر :

ألا قبحَ الله البراجم كلها ... وقبّح يَرْبوعا وقبّح دَارِمَا

الكتاب : هو التوراة ، القرون الأولى : هم قوم نوح وهود وصالح ، بصائر : واحدها بصيرة ، وهى نور القلب للتمييز بين الحق والباطل .

المعنى الجملى

بعد أن رغب موسى فرعون وقومه فى التوحيد والنظر فى الكون تارة ورهبهم من عذاب الله وشديد نكاله تارة أخرى ـ أجابه فرعون بتلك المقالة التى تدل على الجهل المطبق ونقصان العقل ، وأنه بلغ غاية لاحد لها فى الإنكار وأنه لامطمع فى إيمانه ، لعتوّه وطغيانه واستكباره فى الأرض حتى قال ما قال ، ومن ثم كانت عاقبته فى الدنيا الهلاك بالغرق هو وجنوده واللعن من الله والناس، وفى الآخرة الطرد من رحمة الله .

ثم أخبر سبحانه أنه آتى موسى التوراة وجعلها نورا للناس يهتدون بها وتكون لهم تذكرة من عقاب الله وشديد عذابه .

الإيضاح

(وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) أى قال يأيها القوم ما علمت لكم فى أى زمن إلها غيرى كما يدعى موسى ، والأمر محتمل أن يكون وسأحقق ذلك لكم ، وهذا كلام ظاهره الإنصاف ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقول لهم بعد ذلك فى شأن الإله وتسليمهم إياه ، إعتمادا على ما رأوا من عظيم نَصَفَته فى القول .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان قالهما فرعون (ما علمت لكم من إله غيرى) وقوله : «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» كان بينهما أربعون عاما ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

وخلاصة مقاله — لاعلم لى برب غيرى فتعبدوه وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله ربا غيرى ومعبودا سواى .

ونحو الآية قوله : « فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » وقوله : « لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ».

قال الرازى : ليس مراده من ادعاء الألوهية أنه خالق السموات والأرض والبحار والجبال وخالق الناس ، فإن العلم بامتناع ذلك واضح لكل ذى عقل ، بل مراده بذلك وجوب عبادته ، فهو ينفى وجود الإله ويقول : لاتكليف على الناس إلا أن يطيعوا مليكهم وينقادوا لأمره اه بتصرف .

ثم خاطب وزيره آمرا له على سبيل التهكم أمام موسى ، ليشكك قومه فى صدق مقالته .

(فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى) أى فاصنع لى آجرًّا واجعل لى منه قصرا شامخا وبناء عاليا أصعد وأرتقى إلى إله موسى الذى يعبده فى السماء ، ويدعى أنه يؤيده وينصره وهو الذى أرسله إلينا .

وبمعنى الآية قوله: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا» .

ثم زاد قومَه شكا فى صدقه بقوله :

(وإنى لأظنه من الكاذبين) أى وإنى لأظنه كاذبا فيما يدعى من أن له معبودا فى السماء ينصره ويؤيده وأنه هو الذى أرسله .

ثم ذكر سبحانه ما هو كالسبب فى العناد والجحود فقال :

(واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون) أى ورأى هو وجنوده كل من سواهم فى أرض مصر حقيرا ، عتوًّا منهم على ربهم ، وحسبوا أنهم بعد مماتهم لايبعثون ولا يثابون ولا يعاقبون ، ومن ثم ركبوا أهواءهم ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد ، وأنه مجازيهم على خبيث أعمالهم وسيئ أقوالهم .

ثم أخبر بما نالهم من عقاب الدنيا بعد أن توعدهم بعقاب الآخرة فقال :

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ) أى فجمعنا فرعون وجنوده من القبط فألقيناهم جميعا فى البحر .

وفى هذا ما لايخفى من الدلالة على عظم شأن الخالق وكبريائه وسلطانه وشديد احتقاره لفرعون وقومه واستقلاله لهم وإن كانوا عددا كبيرا وجما غفيرا ، فما مثلهم إلا مثل حصيات صغار قذفها الرامى من يده فى البحر .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وقومه بالنظر والاعتبار والتأمل فى العواقب ليعلموا أن هذه سنة الله فى كل مكذب برسله فقال :

(فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) أى فانظر أيها المعتبر بالآيات ، كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وكفروا بربهم وردوا على رسوله نصيحته ـ ألم نهلكهم ونورّث ديارهم وأموالهم أولياءنا ونخوّلهم ما كان لهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كبير بعد أن كانوا مستضعفين، تُقتَّل أبناؤهم وتستحيا نساؤهم ، وإنّا بك وبمن آمن بك فاعلون ، فمخولوك وإياهم ديار من كذبك وردَّ عليك ما أتيتهم به من الحق ، وأموالهم بعد أن تستأصلوهم قتلا بالسيف ـ سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

ثم ذكر ما يوجب سوء عاقبتهم وعذابهم فى النار فقال :

(وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) أى وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدى بهم أهل العتو والكفر بالله ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصى ، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التى تلقى بفاعلها فى النار .

وما كفاهم أن يكونوا ضالين كافرين بالله ورسوله ، بل دأبوا على إضلال سواهم وتحسين العصيان لهم ، وبذا قد ارتكبوا جريمتين ، فباءوا بجزاءين : جزاء الضلال وجزاء الإضلال ، وقد جاء فى الحديث : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ثم ذكر أنه لانصير ولا شفيع فى ذلك اليوم فقال :

(ويوم القيامة لاينصرون) أى ويوم القيامة لايجدون نصيرا يدفع عنهم عذاب

الله إذا حاق بهم ، وقد كانوا فى الدنيا يتناصرون ، فكان لهم مطمع فى النصرة يومئذ على حسب ما يعرفون .

ثم ذكر ما هو كالفذلكة لما تقدم وبين سوء حالهم فى الدارين فقال :

(وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) أى وألزمنا فرعون وقومه فى هذه الدنيا خزيا وغضبا منا عليهم ومن ثم قضينا عليهم بالهلاك والبوار وسوء الأحدوثة ، ونحن مُتْبِعُوهم لعنة أخرى يوم القيامة ، فخزوهم الخزى الدائم ومهينوهم الهوان اللازم الذى لا فكاك عنه .

ثم بين سبحانه الحاجة التى دعت إلى إرسال موسى ليكون كالتوطئة لبيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفصلنا فيها الأحكام التى فيها سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم من بعد ما أهلكنا الأمم التى من قبلهم كقوم نوح وهود وصالح ، ودرست معالم الشرائع وطمست آثارها واختلّ نظم العالم وفشا بينهم الشر ورفع الخير . فاحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح ما فسد من عقائدهم وأفعالهم ، بتقرير أصول فى ذلك التشريع تبقى على وجه الدهر، وترتيب فروع تتبدل بتبدل العصور واختلاف أحوال الناس ، وفيها التذكير بأحوال الأمم الخالية ليكون فى ذلك عبرة للناس ، ونور لقلوبهم ، تبصر به الحقائق وتميز بين الحق والباطل ، بعد أن كانوا فى عماية عن الفهم والإدراك ، وتهديدهم إلى ما يوصلهم إلى القرب من ربهم ونيل رضوانه ومغفرته ورحمته ، ليتذكروا نعم الله عليهم فيشكروه عليها ولا يكفروا بها .

قال أبو سعيد الخدْرى : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة

على موسى غير القرية التي مسخت قردة ، ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

الغربي : هو الجبل الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى ، قضينا : أي عهدنا إليه وكلفناه أمرنا ونهينا ، الأمر : أي أمر الرسالة ، الشاهدين : أي الحاضرين ، فتطاول عليهم العمر : أي بعُد الأمد ، ونحوه : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » ثاويا : أي مقيما . قال العجّاج :

* فبات حيث يدخل الثّوِيُّ * أي الضيف المقيم ، أهل مدين : أي قوم شعيب عليه السلام ، مصيبة : أي عذاب الدنيا والآخرة ، ولولا الثانية بمعنى هلا وتفيد تمنى حصول مابعدها والحث عليه .

المعنى الجملي

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أنه أرسل موسى بعد أن أهلك القرون الأولى ودرست الشرائع واحتيج إلى نبي يرشد الناس إلى ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم

أردف ذلك ببيان الحاجة إلى إرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لمثل تلك الدواعى التى دعت إلى إرسال موسى عليه السلام ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولأن رحمته اقتضت ألا يعذب أحدا إلا إذا أرسل رسولا ، ويتضمن ذلك كون القرآن وحيا من عند الله ، لأن ما فصل فيه من الأحوال لايتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها ، وقد انتفى كلاهما فتبين أنه بوحى من علام الغيوب .

الإيضاح

(وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) أى وما كنت حاضرا بجانب الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى حين عهدنا إليه أمر النبوة ، وما كنت من جملة السبعين الذين اختيروا لسماع تفاصيل ذلك الأمر الذى أوحينا به إلى موسى حتى تخبر به كله على الوجه الذى أتيناك به فى هذه الأساليب المعجزة .

وخلاصة ذلك — إن إخبارك بالغيوب الماضية التى لم تشهدها وقد قصصتها كأنك سامع راء لها وأنت أمى لاتقرأ ولا تكتب ، وقد نشأت بين قوم أميين لايعرفون شيئا من ذلك ـ لهو من أعظم البراهين على نبوتك ، وإن إخبارك بذلك إنما هو بوحى من الله كما قال : « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » .

(ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر) أى ولكنا أنشأنا من عهد موسى إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر إلى أن وجد القرن الذى أنت فيه فدرست العلوم فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى وأرسلناك بما فيه سعادة البشر .

والخلاصة — إنك ما كنت شاهدا موسى وما جرى له ولكنا أوحيناه إليك ، وفى هذا تنبيه إلى المعجزة كأنه قال : إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلّم من أهله ـ لدلالة ظاهرة على نبوتك .

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

(١) (وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا) أى وما كنت مقيما بين أهل مدين تتلقف القصة ممن شاهدها ، وتقرؤها عليهم بطريق التعلم منهم كما يقرأ المتعلم على معلمه ، فتفهم أخبار موسى بهذا الطريق ونحوه .

(ولكنا كنا مرسلين) لك موحين إليك تلك الآيات ونظائرها ، ولولا ذلك ما علمتها وما أخبرتهم بها .

(٢) (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) أى وما كنت بجانب الطور ليلة المناجاة وتكليم الله موسى حتى تحدّث أخبارها وتفصل أحوالها حديث الخبير العليم ببواطن أمورها وظواهرها .

(ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بتلك الأخبار وبغيرها مما فيه صلاح البشر وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، لتنذر قوما لم يأتهم قبلك نذير ، وتحذرهم بأس الله وشديد عقابه على إشراكهم به وعبادتهم الأوثان والأنداد ، لعلهم يرجعون عن غيهم ويتذكرون عظيم خطئهم وكبير جُرْمهم فينيبوا إلى ربهم ويقروا بوحدانيته ويفردوه بالعبادة دون سواه من الآلهة .

ثم ذكر الحكمة فى إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، وأن فى ذلك قطعا لمعذرتهم حتى إذا جاءهم بأسنا لم يجدوا حجة فقال :

(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) أى ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلناك إليهم حين يحلّ بهم بأسنا ويأتيهم عذابنا على كفرهم بربهم واجتراحهم المعاصى قبل أن نرسلك إليهم : ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولا قبل أن يحلّ بنا سخطك وينزل بنا عذابك ، فنتبع أدلتك وآى كتابك التى تنزلها عليه ونكون من المؤمنين بألوهيتك المصدقين برسولك — لعاجلناهم العقوبة على شركهم ، لكنا بعثناك إليهم نذيرا ببأسنا

كما هو سنتنا فى أمثالهم كما جاء فى الآية الكريمة : «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» .

والخلاصة — إنا أزحنا العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك أيها الرسول إليهم ، وقد حكمنا بأنا لا نعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) .

شرح المفردات

الحق : أى الأمر الحق وهو القرآن ، سحران : أى ما أوتيه موسى وما أوتيه محمد ، تظاهرا : أى تعاونا وتناصرا ، فإن لم يستجيبوا لك : أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به ، والتوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض قال شاعرهم :

فقل لبنى مروان ما بال ذمتى بحبل ضعيف ما يزال يُوَصَّل

والمراد به هنا إنزال القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض .

المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أنه إنما أرسل رسوله قطعا لمعذرتهم حتى لا يقولوا حين نزول بأسنا بهم : هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبعه — أردفه ببيان أنه حين مجىء

الرسول و إنزال القرآن عليه جحدوا به وكذبوا رسالته ولم يعتدوا بكتابه وطلبوا مجىء معجزات كمعجزات موسى من مجىء التوراة جملة وقلب العصا و إخراج اليد بيضاء من غير سوء ، وقد كفر المعاندون من قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات وقالوا : ما هى إلا سحر مفترى وما هى إلا أساطير الأولين و إن موسى ومحمدا ساحران تعاونا على الخداع والتضليل ، و إنا لكافرون بكل منهما .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إن استطعتم أن تأتوا بكتاب خير من كتابيهما موصل إلى الحق هاد إلى سبيل الرشد فافعلوا ، فإن لم تستطيعوا ذلك فأنتم متبعون للهوى ، سالكون سبيل الضلال ، ولا أضل ممن يسلك هذه السبيل .

ثم ذكر أنه ما أرسل الكتاب منجما على هذا النهج إلا ليكون فيه عبرة وذكرى لهم بين آن وآخر لعلهم يرتدعون عن غيهم و يثوبون إلى رشدهم .

الإيضاح

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) أى فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله ـ بالكتاب الكريم قالوا تمرداً وعناداً وتمادياً فى الغى والضلال : هلا أوتى مثل ما أوتى موسى من المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وتظليل الغمام إلى نحو أولئك .

ثم ذكر أن هذه شِنْشِنة المعاندين فى كل زمان ، لا يريدون بما يقولون إظهار الحق بل يقصدون التمادى والإنكار ، ألا ترى أن من أرسل إليهم موسى قالوا مثل هذه المقالة كما أشار إلى ذلك بقوله :

(أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟) أى إن المعاندين الذين مذهبهم كمذهبكم وهم الكفار الذين كانوا فى زمن موسى كفروا بما جاء به موسى ، فأنتم متبعون نهجهم وسالكون سبيلهم .

ثم بين طريق كفرهم به فقال :

(قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون) أى قالوا إن موسى ومحمدا ساحران

تعاونا على الدَّجْل والتضليل وخداع السُّذَّج من الجماهير ، ولم يرسلهما ربهما لهداية البشر كما زعما ، وإنا لكافرون بكل منهما ولا نؤمن بما جاءا به .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى قومه بأن يأتوا بكتاب أهدى للبشر وأصلح لحالهم فى المعاش والمعاد من التوراة والقرآن فقال :

(قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) أى ائتونى بكتاب من عند الله أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن ، فإن جئتم به فإنى لأتركهما وأتبع ما تجيئون به ، إن كنتم صادقين فيما تقولون ، جادّين فيما تدّعون .

ثم توعدهم إذا هم نكصوا على أعقابهم ولم يلبوا طلبه ولم يأتوا بالكتاب فقال :

(فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به فاعلم أنهم سادرون فى غُلَوَائهم ، متبعون لأهوائهم ، راكبون لرءوسهم ، حائدون عما يقتضيه الدليل والبرهان .

ثم بين عاقبة من يتبع الهوى فقال :

(ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) أى ومن أضل عن طريق الرشاد وسبيل السداد ممن سار متبعا الهوى بغير بيان من الله وعهد منه بما ينزله على رسله بوحى منه .

وفى هذا من التشنيع عليهم وتقبيح فعلهم ما لا يخفى على كل ذى لب .

ثم بين سنته تعالى فى خلقه فقال :

(إن الله لا يهدى القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق لإصابة الحق واتباع سبيل الرشد ، من خالفوا أمره ، وتركوا طاعته ، وكذبوا رسله، وبدلوا عهده، واتبعوا هوى أنفسهم إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمن .

ولما أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بين الحكمة فى إنزال القرآن منجما فقال :

(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) أى ولقد نزلنا عليهم القرآن متواصلا

بعضه إثر بعض على ما تقتضيه الحكمة وترشد إليه المصلحة ، وهى أن يكون أقرب إلى التذكير والتنبيه ، فهم فى كل يوم يطلعون فيه على حكمة جديدة وفائدة زائدة فيكون ذلك أدعى إلى إيمانهم ورسوخه فى نفوسهم وامتلاء قلوبهم نوراً به .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) .

شرح المفردات

مسلمين : أى منقادين خاضعين لله ، يدرءون أى يدفعون ، واللغو : ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول ، سلام عليكم : أى سلام لكم مما أنتم فيه ، لا نبتغى الجاهلين أى لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فنجازيكم على باطلكم بباطل مثله .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم من وصف ، فأَجْدِر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جُبَيْر : نزلت هذه الآية فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا عليه قرأ عليهم (يس والقرآن الحكيم) حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا .

الإيضاح

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) أي الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب ، ثم أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا بالقرآن ، لأنهم قد وجدوا في كتبهم البشرى به ، وانطباق الأوصاف عليه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ » ، وقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

(وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) أي وإذا تلى هذا القرآن عليهم قالوا صدقنا بأنه نزل من عند ربنا حقا ، وقد كنا مصدقين به قبل نزوله ، لأنا وجدنا في كتبنا نعت محمد ونعت كتابه .

وفي هذا إيماء إلى أن إيمانهم به متقادم العهد ، فآباؤهم الأولون قرءوا في الكتب الأول ذكره ، وأبناؤهم من بعدهم فعلوا كما فعلوا من قبل نزوله .

ثم بين جزاءهم على إيمانهم به بعد إيمانهم بما سبقه من الكتب بقوله :

(أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أي هم يؤتون ثواب عملهم مرتين : مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمانين ، فإنّ تجشم مثل هذه المشاقّ شديد على النفوس ، فقد يصيبهم من جرّاء ذلك أذى من قومهم أو من المشركين في اتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

ونحو الآية قوله تعالى في شأنهم « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » وفي الحديث الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه

ثم آمن بى ، وعبــد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » وروى أبو أمامة قال : إنى لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسنا جميـلا وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الـكتابين فله أجره مرتين وله ما لنا وعليه ما علينا » .

ثم ذكر من أوصافهم مايؤهلهم للزلفى والقرب من ربهم فقال :

(١) (ويدرءون بالحسنة السيئة) أى وهم يدفعون ماسمعوا من الأذى والشتم بالصفح والعفو عنه .

(٢) (ومـما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون مـما أعطاهم الله من فضله من المال الحلال النفقات الواجبـة لأهلهم وذوى قرباهم ، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ويساعدون البائسين وذوى الخصاصة المعوزين .

(٣) (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنـا أعمالنا ولكم أعمالكم سـلام عليكم لانبتغى الجاهلين) أى وإذا سمعوا مالا ينفع فى دين ولا دنيا من السب والشتائم وتكذيب الرسول أعرضوا عن قائليه ولم يخالطوهم ، وإذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بمـا لاينبغى رده من القول لم يقابلوه بمثله ، إذ لايصدر منهم إلا طيب الكلام وقالوا لنا أعمالنا لاتثابون على شىء منها ولا تعاقبون ، ولكم أعمالكم لانطالب بشىء منها ، فنحن لانشغل أنفسنا بالرد عليكم ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، فإنا لانريد طريق الجاهلين.

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً » .

روى محمد بن إسحق « أنه قدم على رسول الله صلى الله عليـه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو يزيدون حين بلغهم خبره ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الـكعبة ، فلما فرغوا من مساءلته عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيّبكم الله من ركب ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما رأينا ركبا أحمق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا .

إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِـعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَـكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٧) .

شرح المفردات

الهداية : تارة يراد بهـا الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير وهى التى أثبتها الله لرسوله فى قوله « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقـذف نور يحيا به القلب كما جاء فى قوله : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا » وهى بهذا المعنى نفيت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية، يجبى إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبى الماء فى الحوض: أى جمعه، والجابية : الحوض العظيم ، والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن أهل الـكتاب من اليهود والنصارى آمنوا به وجاءوا إليه زرافات ووُحدانا من كل فج عميق وجابوا الفيافى وقطعوا البحار للإيمان به ،

بعد أن سمعوا أخباره ، وترامت لهم فضائله وشمائله ، وقد كان فى هـذا مقنع لقومه أن يؤمنوا به وأن تحدثه نفسه الشريفة بالطمع فى إيمانهم، ودخول الهدى فى قلوبهم والانتفاع بما آتاه الله من العرفان ، فتكون لهم به السعادة فى الدنيا والآخرة ـ أردف ذلك بالآية الأولى تسلية له صلى الله عليه وسلم إذ لم ينجع فى قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص ـ إنذاره وإبلاغه ، فيقبلوا ما جاء به ، بل أصروا على ما هم عليه وقالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه آمنوا بما جاء به وقالوا إنه الحق من ربنا .

وقد استفاضت الأخبار بأن الآية نزلت فى أبى طالب، فقد أخرج عبد بن حُميد ومسلم والترمذى والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاة أتاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال يا عماه : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة ، فقال : لولا أن تعيرنى قريش ، يقولون ما حمله على ذلك إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك ، فأنزل الله (إنك لاتهدى من أحببت) » الآية .

ونزل فى الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ونحن أَكَلَةَ رأس (يريد إنا قليلو العدد) أن يتخطفونا ـ قوله تعالى : (وقالوا إن نتبع الهدى) الآية .

الإيضاح

(إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) أى إنك لا تستطيع هدى من أحببت من قومك أو من غيرهم هدى موصلا إلى البغية ، فتدخله فى دينك وإن بذلت كل مجهود ، وإنما عليك البلاغ والله يهدى من يشاء وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

ونحو الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » ، وقوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(وهو أعلم بالمهتدين) أى وهو أعلم بالمستعدين للهداية فيمنحوها ، ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب دون من هم من أهل الغواية كقومك وعشيرتك.

ثم أخبر سبحانه عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباعهم للهدى فقال :

(وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أى وقالوا : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى ويحاربونا ويجلونا من ديارنا .

فرد الله عليهم مقالتهم وأبان لهم ضعف شبهتهم فقال :

(أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟) أى إن ما اعتذرتم به لايصلح أن يكون عذرا ، لأنا جعلناكم فى بلد أمين وحرم معظم منذ وجد ، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لكم حال كفركم وشرككم ولا يكون أمنا لكم وقد أسلمتم واتبعتم الحق ؟ قال يحيى بن سلام : يقول : كنتم آمنين فى حرمى ، تأكلون رزقى ، وتعبدون غيرى ، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى ؟ وقد تفضل عليكم ربكم وأطعم أهله من كل الثمرات التى تجلب من فجاج الأرض والمتاجر والأمتعة من كل بلد ، رزقا منه لكم .

(ولكن أكثرهم لايعلمون) أى ولكن أكثرهم جهلة لا يفطنون إلى مافيه خيرهم وسعادتهم ومن ثم قالوا ما قالوا ، وقد كان من حقهم أن يعلموا أن تلك الأرزاق إنما وصلت إليهم من ربهم ، فهو الذى يخشى ويتقى لا سواه من المخلوقين .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) .

شرح المفردات

بطرت : أى بغت وتجبرت ولم تحفظ حق الله ، وأمها : أكبرها وأعظمها ، وهى قصبتها (عاصمتها) .

المعنى الجملى

هذا هو الرد الثانى على شبهتهم ، فإنه بعد أن بين ماخص به أهل مكة من النعم أتبعه بما أنزله على الأمم الماضية الذين كانوا فى رغد من العيش ، فكذبوا الرسل ، فأزال عنهم تلك النعم ، وأحل بهم النقم .

وإجمال هذا ـ إن قولكم لانؤمن خوفا من زوال النعم ليس بحق ، بل الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذى يزيل هذه النعم .

ثم بين أن من سنته تعالى ألا يهلك قوما إلا إذا أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

الإيضاح

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى وكثير من القرى أثرى أهلها وسعوا فى الأرض فسادا وبطروا تلك النعم فخرّب الله ديارهم ، وأصبحت مساكنهم خاوية لم يعمر منها إلا أقلها وصار أكثرها خرابا يبابا .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ »

(وكنا نحن الوارثين) لهم ، إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر مايتصرفون فيه ، والشىء إذا لم يبق له مالك معين قيل إنه ميراث الله ، لأنه هو الباقى بعد خلقه .

ونحو الآية قوله : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لايهلك أحدا إلا بعد الإنذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال :

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) أى وما كانت سنته فى عباده أن يهلك القرى حتى يبعث فى كبراها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب حينا والترهيب حينا آخر، فيكون ذلك أدعى إلى إلزام الحجة وقطع المعذرة .

وإنما كان البعث فى أم القرى ، لأن فى أهلها فطنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة وأعرف بمواقع الحق ؛ إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم يسكنون المدائن وهى أم ماحولها .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » .

ثم بين أنه لايهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا رسلهم فقال :

(وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أى ولا نهلك القرى التى نبعث فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ويرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا بتكذيب الرسول وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيراً .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) .

شرح المفردات

من المحضرين: أى الذين يُحضَرون للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال : « لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » وقال : « إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار .

المعنى الجملى

هذا هو الرد الثالث على تلك الشبهة ، فإن خلاصة شبهتهم أنهم تركوا الدين لئلا تفوتهم منافع الدنيا ، فرد الله عليهم بأن ذلك خُرْق رأى وخَطَل عظيم ، فإن ماعند الله خير مما فيها لكثرة منافعه وخلوصه من شوائب المضار ، ومنافعها مشوبة ، وهو أبقى مما فيها ، لأنه دائم لاينقطع ، ومنافعها لا بقاء لها ، فمن الجهل الفاضح إذاً ترك منافع الآخرة لاستيفاء منافعها ، ولاسيما إذا قورنت المنافع بعقاب الآخرة .

الإيضاح

(وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى) أى وما أعطيتم أيها الناس من شىء من الأموال والأولاد ، فإنما هو متاع تتمتعون به فى الحياة الدنيا وتتزينون به فيها وهو لايغنى عنكم شيئا عند ربكم ولا يجديكم شَرْوَى نَقِيرٍ لديه ، وما عنده خير لأهل طاعته وولايته لدوامه وبقائه ، بخلاف ما عندكم فإنه ينفد وينقطع بعد أمد قصير .

ونحو الآية قوله « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ » وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » ، وفى الحديث : « والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم ، فلينظر ماذا يرجع إليه ؟ » .

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا عقول لكم أيها القوم تتدبرون بها فتعرفون الخير من الشر ، وتختارون لأنفسكم خير المنزلتين على شرهما ، وتؤثرون الدائم الذى لا نفاد له على الفانى الذى ينقطع ، ومن أجل هذا أثر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث للمشتغلين بطاعة الله تعالى - وكأنه رحمه الله أخذه من هذه الآية .

ثم أكد ترجيح ما عند الله على ما فى الدنيا من زينة بقوله :

(أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟) أى أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا بالجنة وجزيل نعيمها مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر ، فآمن بما وعدناه وأطاعنا فاستحق أن ننجز له وعدنا فهو لاقيه حتما وصائر إليه ، كمن متعناه الحياة الدنيا ونسى العمل بما وعدنا به أهل الطاعة ، وآثر لذة عاجلة على لذة آجلة لا تنفد ، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله من المحضرين لعذابه ؛ وأليم عقابه ؟ .

وهذه الآية تبين حال كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وحال كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

وخلاصة ذلك - أفمن سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعده الله فيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا وقد كفر بالله وآياته ثم هو يوم القيامة من المحضرين لعذابه - الجواب الذى لا ثانى له - إنهما لا يستويان فى نظر العقل الرجيح ؟ ! .

وتلخيص المعنى : إنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا قيل لهم : لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقضى بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف و بعد هذه اللذة فيها يحصل العقاب الدائم .

وجاء الكلام بأسلوب الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) .

شرح المفردات

حق : أى وجب وثبت، والقول. أى مدلول القول ومقتضاه وهو قوله : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» والغواية : الضلال والفعل غوى يغوى كضرب يضرب ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يجيبوا ، عميت : أى خفيت ؛ والأنباء : الحجج التى تنجيهم ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه - يكون وبالا على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب - أردف ذلك ببيان مايحصل فى هذا اليوم من الإهانة والتقريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون فى الجواب عنها ويشتد عليهم الخطب حين لايجدون مخلصا ومعذرة تبرر لهم ما كانوا يقترفون فيسألهم أوّلا عن الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من أصنام وأوثان ، هل ينصرونهم أو ينتصرون ، ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم ردا ، ثم يسألهم عما أجابوا به الرسل حين دعوهم إلى الإيمان بربهم ، فتخفى عليهم الحجج التى

تنجيهم من العذاب الذى لا مفر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقّنه من حجة لهول الموقف واشتداد الخطب ، ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين بربهم الذين عملوا صالح الأعمال ، وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

الإيضاح

(ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى رب العزة هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدون عن سبيل الله فيقول لهم : أين شركائى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم لى شركاء - ليخلّصوكم من هذا الذى نزل بكم من العذاب .

وهذا السؤال للإهانة والتحقير ، لأنهم عرفوا بطلان ما كانوا يفعلون .

ونحو الآية قوله « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

ثم ذكر جواب هؤلاء الرؤساء الدعاة إلى الضلال فقال :

(قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا) أى قال رءوس الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » فدخلوا النار : ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم ، أغويناهم باختيارهم كما غوينا نحن كذلك ، ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإلجاء - فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .

وخلاصة ذلك : إن تبعة غيِّهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نلجئهم إلى ذلك ، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسب ، فإن كان تسويلنا لهم داعيا إلى الكفر ، فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع من الأدلة العقلية ، و بعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر داعيا إلى الإيمان .

ونحو ذلك قوله حكاية عن الشيطان « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ »وقوله لإبليس «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» فقوله : إلا من اتبعك يدل على أن ذلك الاتباع من قبل أنفسهم ، لامن إلجاء الشيطان إلى ذلك .

ثم زاد الجملة الأولى توكيداً بقوله :

(تبرأنا إليك) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى اتباعا لهوى أنفسهم ، فلا لوم علينا فى الحقيقة بسببهم .

ونحو الآية قوله « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » .

ثم ذكر ما هو كالعلة لنفى الشبهة عنهم فقال :

(ما كانوا إيانا يعبدون) أى هم ما كانوا يعبدوننا ، و إنما كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم .

ثم طلب إليهم دعاء الشركاء توبيخا لهم وتهكما بهم فقال :

(وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أى وقيل للمشركين بالله الآلهةَ والأنداد فى الدنيا : ادعوا آلهتكم الذين زعمتم جهلا منكم شركتهم لله ، ليدفعوا العذاب عنكم ، فدعوهم لفرط الحيرة وغلبة الدهشة فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الإجابة

والمقصد من طلب ذلك منهم فضيحتهم على رءوس الأشهاد بدعاء من لا نفع له ولا فائدة منه .

ثم بين حالهم حينئذ وتمنيهم أن لو كانوا وفقوا فى الدنيا إلى سلوك طريق الهدى والرشاد فقال :

(ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى وأيقن الداعون والمدعوون أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين فى الدنيا .

ونحو الآية قوله « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » .

وبعد أن سئلوا عن إشراكهم بالله توبيخا لهم ، سئلوا عن تكذيبهم للأنبياء كما أشار إلى ذلك بقوله :

(ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين؟) أى ويوم ينادى المشركين ربهم وقد برز الناس فى صعيد واحد ، منهم المطيع ومنهم العاصى ، وقد أخذ بأنفاسهم الزحام وتراكبت الأقدام على الأقدام ، فيقول لهم: ماذا أجبتم المرسلين فيما أرسلناهم به إليكم من دعائكم إلى التوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام ؟.

ثم بين أنهم لايحارون جوابا ، ولا يجدون من الحجج ما يدافعون به عن أنفسهم فقال :

(فعميت عليهم الأنباء يومئذ) أى فخفيت عليهم الحجج ولم يجدوا معذرة يجيبون بها ، فلم يكن لهم إلا السكوت جوابا ، ثم ذكر أنه تخفى عليهم كل طرق العلم التى كانت تجديهم فى الدنيا فقال :

(فهم لايتساءلون) أى فلا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات لما اعتراهم من الدهشة وعظيم الهول ، ولتساويهم جميعا فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب .

وإذا كان الأنبياء لهول ذلك اليوم يتعتعون فى الجواب عن مثل ذلك السؤال ويفوضون الأمر إلى علم الله كما قال « يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » فما ظنك بهؤلاء الضلال ؟.

وبعد أن ذكر حال المعذبين من الكفار ومايجرى عليهم من التوبيخ والإهانة أتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ترغيبا فى التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال :

(فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) أى فأما من تاب من المشركين ، وراجع الحق ، وأخلص لله بالألوهة ، وأفرد له العبادة ، وصدّق نبيه ، وعمل بما أمره الله فى كتابه على لسان نبيه ، فهو من الفائزين الذين أدركوا طَلِبتهم وفازوا بجنات النعيم خالدين فيها أبداً .

وقد تقدم أن ذكرنا فى كثير من المواضع أن (عسى) يراد بها فى الكتاب الكريم الإعداد وتوقع حصول ما بعدها من الفوز والنجح لما طلبوا .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) .

شرح المفردات

الخيرة والتخير : الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض ، سبحان الله : أى تنزيها لله أن ينازعه أحد فى الاختيار ، تكنّ : أى تخفى ، ويعلنون : أى يظهرون ، الحكم : القضاء النافذ فى كل شىء دون مشاركة لغيره فيه .

المعنى الجملى

بعد أن وبخهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكما بهم وتقريعا لهم ـ أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه واصطفائهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفاءه على غيره من حق الله لا من حقكم أنتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتموهم للعبادة والشفاعة ، فما أنتم إلا جهال ضلال .

الإيضاح

(وربك يخلق ما يشاء ويختار) أى وربك يخلق ما يشاء خلقه ، وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفى ما يريد أن يصطفيه ويختاره ، فيختار أقواما لأداء الرسالة وهداية الخلق وإصلاح ما فسد من نظم العالم ، ويميز بعض مخلوقاته عن بعض ويفضله بما شاء ، ويجعله مقدما عنده ، وليس لهم إلا اتباع ما اصطفاه ، وهو لم يصطف شركاءهم الذين اختاروهم للعبادة والشفاعة ، فما هم إلا فى ضلال مبين ، صدوا عن عمل ما يجب عليهم فعله طاعة لله ورسوله ، وتصدّوا لما ليس من حقهم أن يفعلوه بحال .

ونحو الآية قوله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وقال الشاعر :

العبد ذو ضجر ، والرب ذو قدر والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا وفى اختيار سواه اللوم والشوم

وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمراً قال « اللهم خِر لى واختر لى » وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه » .

ويستحسن ألا يقدم أحد على أمر من الأمور حتى يسأل الله الخيرة فى ذلك، بأن يصلى ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ » وفى الركعة الثانية « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ».

وعن جابر بن عبد الله قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاقدُرْه لى ويسره لى، ثم بارك لى فيه، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضّنى به، قال: ويسمى حاجته.

ثم أكد هذا وقرره بقوله:

(ما كان لهم الخيرة) أى ليس لهم أن يختاروا على الله شيئا، وله الخيرة عليهم، فله أن يرسل من يشاء رسولا على حسب مايعلمه من الحكمة والمصلحة دون أن يكون ذلك منوطا بمال أو جاه كما خيل إلى بعض المشركين فقالوا « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ».

ثم نزه سبحانه نفسه أن ينازعه فى سلطانه أحد فقال:

(سبحان الله وتعالى عما يشركون) أى تنزيها له وعلوا عن إشراك المشركين، فليس لأحد أن ينازع اختياره أو يزاحمه فيه، لعلمه باستعداد خلقه وصلاحيتهم للاصطفاء، فإذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدى أحداً ممن يحب، أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظمائهم قال الله لهم: ليس لكم من الأمر شىء، فلا النبي صلى الله عليه وسلم بقادر على هدى عمه، ولا أهل مكة يصلون إلى أن تكون الرسالة فى عظمائهم.

ثم بين أن اختياره تعالى مبنى على العلم الصحيح لا اختيارهم فقال :

(وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون) أى إن اختياره من يختار منهم للإيمان به مبنى على علم منه بسرائر أمورهم وبواديها ، فيختار للخير أهله فيوفقهم له ، ويولّى الشر أهله ويخليهم وإياه .

ونحو الآية قوله «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » .

ولما كان علمه بذلك جاء من كونه إلها واحداً فرداً صمداً ، وكان غيره لا يعلم من من علمه إلا ما علمه قال :

(وهو الله لا إله إلا هو) أى وهو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ولا يحيط الواصفون بكنه عظمته ، وهو العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء .

ثم ذكر بعض صفات كماله فقال :

(له الحمد فى الأولى والآخرة) أى هو المحمود فى جميع مايفعل فى الدنيا والآخرة ، لأنه المعطى لجميع النعم عاجلا وآجلا .

(وله الحكم) النافذ فى كل شىء ، فلا معقّب لحكمه ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكَم العدل اللطيف الخبير .

(وإليه ترجعون) يوم القيامة فيجزى كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شرا ، ولا يخفى عليه منهم خافية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، والسرمد : الدائم المتصل ، قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغُمَّة نهارى ولا ليلى على بسَرْمَد

تسكنون فيه : أى تستقرون فيه من متاعب الأعمال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم ، وتفضل به من المنن ـ أردف هذا بتفصيل مايجب أن يحمد عليه منها ولا يقدر عليها سواه .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله : أيها القوم أخبرونى إن جعل الله عليكم الليل دائماً لانهارله يتبعه إلى يوم القيامة ، أىّ معبود غيرالله يأتيكم بضياء النهار فتستضيئون به ؟

وفى هذا الأسلوب من التبكيت والتقريع والإلزام ما لايخفى .

(أفلا تسمعون ؟) مايقال لكم سماع تدبر وتفكر فتتعظوا وتعلموا أن ربكم هو الذى يأتى بالليل و يزيل النهار إذا شاء ، و إذا أراد أتى بالنهار وأذهب الليل ، ولايقدر على ذلك سواه .

(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟) أى أخبرونى إن جعل الله عليكم النهار دائما لا ليل معه أبداً إلى يوم القيامة ، أىّ المعبودات غير الله الذى له عبادة كل شىء يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدءون ؟

(أفلا تبصرون؟) الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، فتعلموا بذلك أن العبادة لاتصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره ، ومن له القدرة التى خالف بها بين الليل والنهار .

ثم بين أن المخالفة بينهما من فضله تعالى ورحمته فقال :

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) أى ومن رحمته بكم أيها الناس جعل لكم الليل والنهار ، وخالف بينهما ، فجعل الليل ظلاما لتستقروا فيه راحة لأبدانكم من تعب التصرف نهارا فى شئونكم المختلفة ، وجعل النهار ضياء لتتصرفوا فيه بأبصاركم لمعايشكم وابتغاء رزقه الذى قسمه بينكم بفضله .

(ولعلكم تشكرون) أى ولتستعدوا لشكره على إنعامه عليكم ، وتخلصوا له الحمد ، لأنه لم يشركه فى إنعامه عليكم شريك ، ومن ثم ينبغى ألا يكون له شريك يُحْمد .

والخلاصة : إن الليل والنهار نعمتان تتعاقبان على مرِّ الزمان ، والمرء فى حاجة إليهما ، إذ لاغنى له عن الكدح فى الحياة لتحصيل قوته ، ولا يتسنى له ذلك على الوجه المرضى لولا ضوء النهار ، كما لا يكمل له السعى على الرزق إلا بعد الراحة والسكون بالليل ، ولا يقدر على شىء من ذلك إلا الله الواحد القهار .

وجاء تذييل الآيتين بقوله (أفلا تسمعون ؟) ، (أفلا تبصرون ؟) لبيان أنهم لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزلوا منزلة من لايسمع ولا يبصر .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) .

شرح المفردات

ونزعنا : أى أحضرنا من قولهم : نزع فلان بحجة كذا إذا أحضرها وأخرجها ، والشهيد : هو نبى الأمة يشهد عليها بما أجابته حين أرسل إليها ، وضل : أى غاب .

المعنى الجملى

بعد أن وبخ المشركين أوّلا على فساد رأيهم فى اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله — عاد إلى تقريعهم وتبكيتهم ثانيا ببيان أن إشراكهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن محض الهوى كما يرشد إلى ذلك قوله (قل هاتوا برهانكم)

الإيضاح

(ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى ويوم ينادى ربك — أيها الرسول — هؤلاء المشركين ، فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ليخلّصوكم مما أنتم فيه .

وهذا النداء للتوبيخ والتقريع على رءوس الأشهاد على عبادة غير الله ، للاشعار بأنه لاشىء أجلب لغضبه تعالى من الإشراك به ، كما أنه لاشىء أدخل فى مرضاته من توحيده عز وجل .

(ونزعنا من كل أمة شهيداً) أى وأحضرنا من كل أمة شهيدها وهو نبيها الذى يشهد عليها بما أجابته أمته فيما آتاهم به عن الله برسالته .

ونحو الآية قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » .

وهذا فى موقف من مواقف القيامة ، وفى موقف آخر يكون الشهداء هم الملائكة

كما قال تعالى : « وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

ثم بين ما يطلب منهم بعد هذه الشهادة فقال :

(فقلنا هاتوا برهانكم) على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء مع إعذار الرسل إليكم ، وإقامة الحجج عليكم ، فلم يحيروا جوابا ، وأيقنوا حينئذ بعذاب دائم ، ونار تتلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

وحينئذ يستبين لهم خطأ ما كانوا يفعلون كما قال :

(فعلموا أن الحق لله) أى فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم ، وأن خبره هو الصادق ، وأنه لا يشركه فى الألوهية شىء .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وغاب عنهم ما كانوا يتخرصون به فى الدنيا ويكذبون به على ربهم من الأباطيل والأضاليل .

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) .

شرح المفردات

فبغى عليهم : أى تكبر وتجبر ، والكنز: المال المدفون فى باطن الأرض، والمراد به هنا المال المدّخر ، ومفاتحه : أى خزائنه واحدها مفتح (بفتح الميم) وتنوء : من ناء به الحمل ينوء : إذا أثقله حتى أماله . قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فَلَأْيًا قيامُها وتمشى الهُوَينى عن قريب فتَبْهَرُ

والعصبة : الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض بلا تعيين عدد خاص ، والقوة : الشدة ، لاتفرح : أى لاتبطر وتتمسك بالدنيا ولذاتها حتى تتلهى عن الآخرة ، قال بيهس العذرى :

ولست بِمِفْراح إذا الدهرُ سرّنى ولا جازع من صَرْفه المتقلّبِ

والدار الآخرة : أى ثواب الله بإنفاق المال فيما يوصل إلى مرضاته ، على علم عندى : أى على حسن التصرف فى المتاجر واكتساب الأموال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حديث أهل الضلالة ومايلقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رءوس الأشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم . أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف ، وزلزلت به الأرض ، وهوت من تحته ، ثم أصبح مثلا يضرب للناس فى ظلمه وعتوّه ، ويستبين لهم من سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة . والندم على ما فعلوا :

نَدِم البُغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَم والبغْىُ مرتَعُ مبتَغيه وَخِيمُ

الإيضاح

(إن قارون كان من قوم موسى) أى إنه كان من بنى إسرائيل ، لأنه ابن عم موسى ، فموسى هو ابن عمران بن قاهَتَ بن لاوَى بن يعقوب عليه السلام ، وقارون بن يصْهُر بن قاهث الخ .

وكان يسمى النور لحسن صورته ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، وأقرأهم لها ، لكنه نافق كما نافق السامرى وقال : إذا كانت النبوة لموسى ، والمذبح والقربان لهرون ، فما لى إذاً ؟

(فبغى عليهم) أى تجاوز الحد فى احتقارهم . والقرابة كثيراً ما تدعو إلى البغى

ثم ذكر سبب بَغيه وعتوه بقوله :

(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى وأعطيناه المال المذخور الذى يثقل حمل مفاتيح خزائنه على العدد الكثير من الأقوياء من الناس.

روى عن ابن عباس أن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلا من الأقوياء ، وكانت أربعمائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف ، ولا شك أن مثل هذا التحديد يحتاج إلى سند قوى يعسر الوصول إليه ، ومثل هذا الأسلوب يدل على إرادة الكثرة دون تحديد شىء معين .

وبعد أن ذكر بغيه ذكر وقته فقال :

(إذ قال له قومه لا تفرح) أى إنه أظهر التفاخر والفرح بما أوتى حين قال له قومه من بنى إسرائيل : لاتظهر الفرح والبطر بكثرة مالك ، فإن ذلك يجعلك تتكالب على جمع حطام الدنيا ، وتتلهى عن شئون الآخرة ، وفعل مايرضى ربك .

ثم علل النهى عن الفرح بكونه مانعا محبة الله فقال :

(إن الله لايحب الفرحين) أى إنه تعالى لا يكرم الفرحين بزخارف الدنيا ولا يقرّبهم من جواره ، بل يبغضهم ويبعدهم من حضرته .

وأثر عن بعضهم أنه قال : لايفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، أما من يعلم أنه سيفارقها عن قريب فلا يفرح بها ، وما أحسن ما قال المتنبى :

أشـــدُّ الغم عندى فى سرورٍ تيقن عنه صاحبُه انتقالا

وأحسن منه وأوجز قوله سبحانه : « لِـكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَـكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

ثم نصحوه بعدة نصائح فقالوا :

(١) (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) أى واستعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

(٢) (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى ولا تترك حظك من لذات الدنيا فى مآكلها ، ومشاربها وملابسها ؛ فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، وروى عن ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وعن الحسن : « قدّم الفضل وأمسك ما يبلغ »

(٣) (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى وأحسن إلى خلقه ، كما أحسن هو إليك فيما أنعم به عليك ، فأعِنْ خلقه بمالك وجاهك ، وطلاقة وجهك ، وحسن لقائهم ، والثناء عليهم فى غيبتهم .

(٤) (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى ولا تصرف همتك بما أنت فيه إلى الفساد فى الأرض ، والإساءة إلى خلق الله .

ثم أتبعوا هذه المواعظ بعلتها فقالوا :

(إن الله لايحب المفسدين) أى إن الله لا يكرم المفسدين ، بل يهينهم ويبعدهم من حظيرة قربه ، ونيل مودته ورحمته .

ثم بين أنه مع كل هذه المواعظ أبى وزاد فى كفران النعمة فقال :

(قال إنما أوتيته على علم عندى) أى قال قارون لمن وعظوه : إنما أوتيت هذه الكنوز لفضل علم عندى ، علمه الله منى ، فرضى بذلك عنى ، وفضلنى بهذا المال عليكم .

وتلخيص ذلك : إنى إنما أعطيته لعلم الله أنى له أهل .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ » .

ثم رد الله عليه مقاله بقوله :

(أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) أى أنسى ولم يعلم ، حين زعم أنه أوتى الكنوز لفضل علم عنده ، فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتى ؟ أن الله قد أهلك من قبله من الأمم ، من هم أشد منه بطشا ، وأكثر جمعا للأموال ؟ ولو كان الله يؤتى الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ورضاه عنه ، لم يهلك من أهلك من أرباب الأموال ، الذين كانوا أكثر منه مالا ، لأن من يرضى الله عنه ، فمحال أن يهلكه وهو عنه راض ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطا ، ألم يشاهد فرعون وهو فى أُبَّهة مُلْكه ، وحقق أمره يوم هُلْكه .

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حاله ، وتوبيخ له على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك .

وبعد أن هدده سبحانه بذكر إهلاك من قبله من أضرابه فى الدنيا ــ أردف ذلك بتهديد المجرمين كافة بما هو أشد من عذاب الآخرة وهو عدم سؤالهم عن ذنوبهم ، إذ أنه يؤذن بشدة الغضب عليهم ، والإيقاع بهم لامحالة ، فقال : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » أى إنه تعالى حين إرادة عقابهم لا يسألهم عن مقدار ذنوبهم

ولا عن كنهها ، لأنه عليم بها ، ولا يعاتبهم عليها كما قال تعالى: «وَمَاهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ» وقال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » .

ونحو الآية قوله « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » .

وهذا لايمنع أنهم يسألون سؤال تقريع وإهانة ، كما جاء فى قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْ كَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْ كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) .

شرح المفردات

الحظ : البخت والنصيب ، العلم : هو علم الدين ، وما ينبغى أن يكون عليه المتقون ، ويل : أصلها الدعاء بالهلاك ، ثم استعملت فى الزجر عن ترك ما لا يرتضى ، وخسف المكان : أى غار فى الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا : غاب به فيها كما قال : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وفئة : أى جماعة من المنتصرين ؛

أى الممتنعين عن عذابه ، يقال : نصره من عدوه فانتصر : أى منعه منه فامتنع ، وى : كلمة يراد بها التندم والتعجب مما حصل ، يقدر : أى يضيق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيا سلف بغى قارون وعتوّه وجبروته ، وكثرة ما أوتيه من المال الذى تنوء به العصبة أولو القوة ـ أردف ذلك بتفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه ، فذكر أنه خرج على قومه ، وهو فى أبهى حليّه وحُلله ، والعدد العديد من أعوانه وحشمه ، قصداً للتعالى على العشيرة ، وأبناء البلاد ، وفى ذلك كسر للقلوب ، وإذلال للنفوس ، وتفريق للكلمة ، فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتفريقهم شَذَرَ مَذَرَ ، وقد غرت هذه المظاهر بعض الجهال الذين لا همّ لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنوا أن يكون لهم مثلها ، فرد عليهم من وفقهم الله لهدايته بأن ما عنده من النعيم لمن اتقى خير مما أوتى قارون ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصى ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معينا ينصره ويدفع العذاب عنه ، وقد انقلب حال المتمنين المعجبين بحاله إلى متعجبين مما حل به ، قائلين : إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ؛ لا لفضل منزلته عنده وكرامته لديه كما بسط لقارون ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفضل علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا الأرض .

الإيضاح

(فخرج على قومه فى زينته) أى فخرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر من مراكب وخدم وحشم ، مريدا بذلك التعالى على الناس ، وإظهار العظمة ، وذلك من الصفات البغيضة ، والافتخار الممقوت ، والخيلاء المذمومة لدى

عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع ، وتفسد نظمه ، وتفرق شمل الأمة ، وتقسمها طبقات ، وفى ذلك تخاذلها ، وطمع العدو فى امتلاك ناصيتها .

وفى هذا تحذير لنا أيما تحذير ، فكثير ممن يظهرون النعم ، إنما يريدون التعالى والتفاخر ، وكم ممن يقيم الزينات ، أو يصنع الولائم لعرْس أو مأتم ، لا يريد بذلك إلا إظهار ثرائه ، وسعة ماله بين عشيرته وبنى جلدته ، فيكون قارون زمانه ، وتكون عاقبته الخسف لما أوتيه من مال ، ويذهب الله ثراءه ، ويجعله عبرة لمن اعتبر .

فالكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالى ليس وبالها فى الآخرة فحسب ، بل يحصل شؤمها فى الدنيا قبل الآخرة ، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم .

وقد رُوى عن مفسرى السلف فى زينة قارون ما يجعلنا نقف أمامه موقف الحذر ، ويجعلنا نعتقد أن الإسرائيليات سَداه ولُحمته ، فمن ذلك ما روى عن قتادة قال : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه ، على أربعة آلاف دابة ، عليهم ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرجُوان . وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول ، وعليهم الثياب الأرجوانية ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الحُلىّ والثياب الحمر يركبن البغال الشُّهب .

وحين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين :

(١) (قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) أى قال من كان همه الدنيا وزينتها : ياليت لنا من الأموال والمتاع مثل ما لقارون منها ، حتى ننعم عيشاً ، ونتمتع بزخارف الحياة ، كما يتمتع .

وإن مثل هذا التمنى ليشاهد كل يوم ، وفى كل بلد ، وفى كل قرية ، فترى الرجل والشاب ، والمرأة والفتاة ، يتمنى كل منهم أن يكون له مثل ما أوتى فلان

وفلانة من ثوب جميل ، أو دابة فارهة ، أو مزرعة يحصد غاتها ، أو قصر مشيد ، أو نحو ذلك .

ثم عللوا تمنيهم وأكدوه بقولهم :

(إنه لذو حظ عظيم) أى إن الله قد تفضل عليه ، وآتاه من بسطة الرزق حظا عظيما ونصيبا كبيرا يغبط عليه .

والقائلون هذه المقالة : إما جماعة من المؤمنين قالوا ذلك جريا على الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار ، و إما عصبة من الكفار والمنافقين تمنوا مثل ماله ، ولم يتمنوا زوال نعمته ، ومثل هذا لا ضرر فيه .

(٢) (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى وقال الذين أوتوا العلم بما أعد الله لعباده فى الآخرة وصدقوا به ردّا على أولئك المتمنين : تبًّا لكم وخُسراً ، كيف تتغالون فى طلب الدنيا ، ويسيل لعابكم عليها ، وما عند الله من ثواب فى الآخرة لمن صدق به ، وآمن برسله، وعمل صالح الأعمال خير مما تتمنون، فإن هذا باق ، وذاك فان ، وهذا خالص مما يشوبه وينغصه من الأكدار ، وذلك مشوب بالأحزان والمنغصات .

ثم بين من يعمل بهذه النصيحة فقال :

(ولا يلقاها إلا الصابرون) أى ولا يتبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل قسم من المنافع والمضار ، وأنفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه وللمجتمع ، وكان قدوة صالحة فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها ، وإعلاء شأنها ، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس ، ويلقى المثوبة من ربه .

ثم ذكر ما آل إليه بطره وأشره من وبال ونكال فقال :

(فخسفنا به وبداره الأرض) أى فزلزلت به الأرض وابتلعته جزاء بطره وعتوّه ،

وفى هذا عبرة لمن اعتبر ، فيترك التعالى والتغالى فى الزينة ، لئلا يخسف الله به وبماله الأرض .

وقد غفل كثير من الناس عن المقصد من المال فأنفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة ، فضاعت دورهم وأموالهم ، وأصبحت ملكا لغيرهم ، وهذا هو الخسف العظيم ؛ وما خسف قارون بشىء إذا قيس بهذا ، فإن الخسف الآن خسف الأمم ، لا خسف الأفراد ، فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيداً له وضحية مطامعه ، وخسف أمة أدهى من خسف فرد ، فليخسف الفرد ، ولتبق الأمة ، وهكذا دخلت البلاد تباعا فى ملك الغاصب ، واحدة إثر أخرى ، ولم يبق منها إلا من رحم الله ، وما ذاك إلا بجهلها لدينها ، وعدم اتباعها أحكامه ، وغفلتها عن مقاصده .

ثم بين أنه لم يجد له شفيعاً ولا نصيراً يدفع عنه العذاب حينئذ فقال :

(فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أى ما أغنى عنه ماله ، ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله ولا نكاله ، ولا استطاع أن ينتصر لنفسه .

وقصارى ذلك : إنه لا ناصر له من غيره ولا من نفسه ، فكيف يكون للأمة الغافلة عن أوامر دينها ، الجاهلة بمقاصد شريعتها فى إنفاق الأموال أن تجد مناصاً من خراب الديار ، وإضاعة المجد الطارف والتالد ، وأن تقع فريسة للغاصبين ، الذين يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة ، وقد كان ذلك جزاءا وفاقا ، لجهلها وسوء تصرفها ، وظلمها لأنفسها ، ولا يظلم ربك أحدا ، وهكذا حال من تصرف فى ماله تصرف السفهاء ، وركب رأسه ، وصار يبعثره يمنة ويسرة ، فإنه سيندم ولات ساعة مندم .

وقد أبان الكتاب أن النصر للصابرين ، فهو أثر لازم للصبر على حفظ المال ، وحفظ الشهوات والعقول ، وكل الفضائل التى حث عليها الدين ، وسلك سبيلها السلف الصالح .

وقد حكى المفسرون فى أسباب الخسف أمورا كثيرة هى غاية فى الغرابة يبعد أن تصدقها العقول ، ومن ثم قال الرازى : إنها مضطربة متعارضة ، فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب اه .

ولما شاهد قوم قارون ما نزل به من العذاب ، صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى ، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله وبما قسمه ، وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبيائه ورسله ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وى كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى فلما خسف الله بقارون الأرض ؛ أصبح قومه يقولون : إن كثرة المال والتمتع بزخارف الدنيا، لاتدل على رضاالله عن صاحبه ؛ فالله يعطى ويمنع، ويوسع ويضيق ، ويرفع ويخفض ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، لا معقب لحكمه . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعا « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحبّ » .

ولما لاح لهم من واقعة أمره أن الرزق بيد الله يصرفه كيف يشاء ، أتبعوه بما يدل على أنهم اعتقدوا أن الله قادر على كل ما يريد من رزق وغيره فقالوا :

(لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا) أى لولا لطف الله بنا لخسف بنا كما خسف به ، لأنا وددْنا أن نكون مثله . ثم زادوا ما سبق توكيداً بقولهم :

(وى كأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله المكذبون برسله وبما وعدوا به من ثواب الآخرة ، كما كان شأن قارون .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير _ أعقب ذلك بذكر محل هذا الجزاء ، وهو الدار الآخرة ؛ وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، بأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ ما يحدث فى هذه الدار ؛ جزاء على الأعمال فى الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ؛ إلى ما لا يحيط به إلا علام الغيوب ، فضلا من الله ورحمة ؛ وجزاء السيئة مثلها ، لطفا منه بعباده ، وشفقة عليهم .

الإيضاح

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا) أى تلك الدار التى سمعت خبرها ، وبلغك وصفها _ نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق وإعراضاً عنه ، ولا ظلم الناس ومعصية الله .

وثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنه أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » . وروى مسلم وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » .

وروى أبو هريرة : « أنه جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان جميلا ، فقال : يارسول الله إنى رجل حُبّب إلىّ الجمال ؛ وأعطيت منه ما ترى ؛ حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل ؛ أفمن ذلك ؟ قال : لا ؛ ولكن المتكبر من بطر الحق وغمط الناس » .

وعن عدى بن حاتم قال : « لما دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ألقى إليه وسادة

وجلس على الأرض ؛ فقال : أشهد أنك لاتبغى علوا فى الأرض ولا فساداً فأسلم» .
أخرجه ابن مردويه .

(والعاقبة للمتقين) أي والعاقبة المحمودة ، وهى الجنة لمن اتقى عذاب الله بعمل الطاعات ، وترك المحرمات ، ولم يكن كفرعون فى الاستكبار على الله ، بعدم امتثال أوامره ، والارتداع عن زواجره ، ولا كقارون فى إرادة الفساد فى الأرض .

ثم بين ما يكون فى تلك الدار من جزاء على الأعمال فقال :

(من جاء بالحسنة فله خير منها) أى من جاء الله يوم القيامة بحسنة فله خير منها، فهو يضاعفها له أضعافا مضاعفة تفضلا منه ورحمة .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) أى ومن أتى بسيئة فلا يجزى عليها إلا مثلها ، وهذا منه سبحانه شفقة وعدل .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ » .

إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) .

شرح المفردات

فرض عليك : أى أوجب عليك ، ومعاد الرجل : بلده ، لأنه يتصرف فى البلاد ثم يعود إليه ، ظهيرا : أى معينا ، هالك : أى معدوم ، وجهه : أى ذاته ، الحكم : أى القضاء النافذ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، وبين بغى قارون واستطالته عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه أردف هـذا بقصص محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع قومه ، وإيذائهم إياه ، وإخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحه إياها منصوراً ظافرا .

الإيضاح

(إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى إن الذى أوجب عليك العمل بأحكام القرآن وفرائضه ــ لرادّك إلى محل عظيم القــدر اعتدته وألفته ، وهو مكة ، والمراد بذلك عوده إليها يوم الفتح ، وقد كان للعود إليها شأن عظيم ، لاستيلاء رسول الله عليها عنوة ، وقهره أهلها ، وإظهار عز الإسلام ، وإذلال المشركين .

وهذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهرا ظافرا .

روى مقاتل أنه عليه السلام خرج من الغار (حين الهجرة) وسار فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجُحْفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال له : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل :

فإن الله يقول : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد).

وهذه إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر .

ولما قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنك لفى ضلال مبين) نزل قوله تعالى :

(قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) أى قل لمن خالفك وكذبك من قومك المشركين ومن تبعهم : ربى أعلم بالمهتدى منى ومنكم ، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن تكون له الغلبة والنصرة فى الدنيا والآخرة ؟.

ثم ذكره سبحانه نعمه ، ونهاه عن معاونة المشركين ومظاهرتهم فقال :

(وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) أى وما كنت ترجو أيها الرسول أن ينزل عليك القرآن ، فتعلم أخبار الماضين من قبلك ، وما سيحدث من بعدك ، وما فيه من تشريع ، فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ؛ وآداب هى منتهى ما تسمو إليه نفوسهم وتطمح إليها عقولهم ؛ ثم تتلو ذلك على قومك ، ولكن ربك رحمك فأنزله عليك .

ثم بين مايجب أن يعمله كفاء هذه النعم المتظاهرة فقال :

(فلا تكونن ظهيرا للكافرين) أى فاحمد ربك على ما أنعم به عليك بإنزاله الكتاب إليك ؛ ولا تكونن عونا لمن كفروا بربك ؛ ولكن فارقهم ونابذهم .

ثم شدد عزمه وقواه بألا يأبه بمخالفتهم فقال :

(ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) أى ولا تبال بهم ؛ ولا تهتم بمخالفتهم لك ؛ وصدهم الناس عن طريقتك ، فإن الله معك ومؤيدك ؛ ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان .

ثم أمره أن يصدع بالدعوة ؛ ولا يألو جهدا فى تبليغ الرسالة فقال :

(وادع إلى ربك) أى وبلغ رسالة ربك إلى من أرسلك إليهم ؛ واعبده وحده لا شريك له .

(ولا تكونن من المشركين) أى ولا تتركن الدعاء إلى ربك وتبليغ المشركين رسالتك ، فتكون ممن فعل فعل المشركين بمعصية ربه وخلافه أمره .

ثم فسر هذا وبينه بقوله :

(ولا تدع مع الله إلها آخر) أى ولا تعبد أيها الرسول مع الله الذى له عبادة كل شىء ـ معبودا آخر سواه .

ثم علل هذا بقوله :

(لا إله إلا هو) أى لأنه لا معبود تصلح له العبادة إلا الله ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

ثم بين صفاته فقال :

١ ــ (كل شىء هالك إلا وجهه) أى هو الدائم الباقى الحى القيوم الذى لا يموت إذا ماتت الخلائق ، كما قال : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها لبيد : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » .

٢ ــ (له الحكم) أى له الملك والتصرف والقضاء النافذ فى الخلق .

٣ ــ (وإليه ترجعون) يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وصل ربنا على محمد وآله .

خلاصة ما تحويه السورة الكريمة من الأغراض

(١) استعلاء فرعون وفساده فى الأرض .

(٢) استضعافه بنى إسرائيل وقتله أبناءهم واستبقاؤه نساءهم .

(٣) منته تعالى على بنى إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون وجعلهم أئمة فى أمر الدين والدنيا ووراثتهم أرض الشام .

(٤) إغراق فرعون وجنوده .

(٥) إلقاء موسى فى اليمّ ، والتقاط آل فرعون له ، ثم رده إلى أمه .

(٦) قتل موسى للقبطى ، ثم هربه إلى أرض مدين ، وتزوجه ببنت كاهنها ، وبقاؤه بها عشر سنين .

(٧) عودة موسى إلى مصر ، ومناجاته ربه .

(٨) معجزات موسى من العصا واليد البيضاء .

(٩) طلبه من ربه أن يرسل معه أخاه هرون ليكون له وزيرا وإجابته لى ذلك .

(١٠) تبليغه رسالة ربه إلى فرعون ، وتكذيب فرعون له ، واستكباره فى الأرض بغير الحق .

(١١) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره عن قصص الماضين ، دون أن يكون حاضرا معهم ، ولا أن يتعلم ذلك من معلم .

(١٢) إنكار قريش لنبوته ، بعد أن جاءهم بالحق من ربهم ، وقولهم إن ما جاء به سحر مفترى .

(١٣) إيمان أهل الكتاب بالقرآن وإعطاؤهم أجرهم مرتين .

(١٤) إثبات أن الهداية بيد الله ، لا بيد رسوله ، فلا يمكنه أن يهدى من يحب .

(١٥) معاذير قريش فى عدم إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم دحضها .

(١٦) بيان أن الله لا يعذب أمة إلا إذا أرسل إليهم رسولا ، حتى لا يكون لهم حجة على الله .

(١٧) نداء المشركين على رءوس الأشهاد ، وأمرهم بإحضار شركائهم ونداؤهم ، ليسألهم عما أجابوا به الرسل ، فلم يستطيعوا لذلك ردا .

(١٨) بيان أن اختيار الرسل لله ، لا للمشركين ، فهو الذى يصطفى من يشاء لرسالته .

(١٩) التذكير بنعمته على عباده باختلاف الليل والنهار .

(٢٠) شهادة الأنبياء على أممهم .

(٢١) ذكر قارون و بغيه فى الأرض ، ثم خسف الأرض به .

(٢٢) بيان أن ثواب الآخرة لا يكون إلا لمن لا يريد العلو فى الأرض ولا الفساد فيها .

(٢٣) مضاعفة الله للحسنات ، وجزاء السيئة بمثلها .

(٢٤) الإنباء بالغيب عن نصر الله لرسوله ، وفتحه لمكة .

(٢٥) بيان أن كل من فى الوجود فهو هالك ، إلا الله تبارك وتعالى .

سورة العنكبوت

هى مكية إلا من أولها إلى قوله : « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » فمدنية ، نزلت بعد سورة الروم ، وعدة آيها تسع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر فى السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته ، وجعله أهلها شيعا ، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون ، وعذبوهم على الإيمان ، دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل ؛ تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا على الصبر ؛ كما قال : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

(٢) ذكر فى السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده إلى مصر رسولا نبيا ، ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا وذكر هنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة وإغراق من كذبه من قومه .

(٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد — وهنا نعى عليهم أيضا وبين أنهم فى ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

(٤) هناك قص قصص قارون وفرعون ، وهنا ذكرهما أيضا ، وبين عاقبة أعمالهما .

(٥) ذكر هناك فى الخاتمة الإشارة إلى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » ، وفى خاتمة هذه أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله : « يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤).

شرح المفردات

الفتنة : الامتحان والاختبار ، ليعلمن الله الذين صدقوا أى ليظهرنّ صدقهم ، السبق : الفوت والمراد به الفوت عن المجازاة ، والسيئات : هى الشرك بالله والمعاصى التى يجترحونها ، ساء ما يحكمون : أى قبح حكمهم أنهم يهربون منا .

المعنى الجملى

بعد أن قال فى أواخر السورة السالفة : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » وكان فى الدعاء إليه توقع الطعن والضرب فى الحرب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق على بعض المؤمنين ـ أردف ذلك بتنبيههم إلى أن المؤمنين لايتبين إيمانهم الحق إلا إذا فتنوا .

روى ابن جرير وابن المنذر أن ناسا ممن كانوا بمكة آمنوا فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة لايقبل منكم إسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآيات فكتبوا إليهم ، أنزلت فيكم آية كذا وكذا ؟ فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال مقاتل : نزلت فى مهجع مولى عمر بن الخطاب ، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ : « سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة » وجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت « الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » الآية .

الإيضاح

(الم) تقدم أن قلنا إنه ينطق بالحروف المقطعة فى أوائل السور بأسمائها فيقال : (أَلِفْ . لَامْ . مِيمْ) .

والحكمة فى البداءة بها التنبيه وطلب إصغاء السامعين إلى مايلقى بعدها ، فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدم على المقصود شيئا غيره ليلفت المخاطب بسببه إليه ، فحينا يكون كلاما مفهوما كقول القائل اسمع أو ألق بالك إلىّ ، وحينا يكون فى معنى الكلام المفهوم كقولك ياعلى ، وحينا يكون صوتا غير مفهوم المعنى كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه .

فالنبى صلى الله عليه وسلم وإن كان يقظ الجنان فهو إنسان يشغله شأن عن شأن فحسن من الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفا هى كالمنبهات لايفهم منها معنى، لتكون أتم فى إفادة التنبيه ، لأنه إذا كان المقدم قولا مفهوما فربما ظن السامع أنه هو المقصود ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتا لامعنى له جزم بأن هناك كلاما آخر سيرد بعد ، فيقبل إليه تمام الإقبال ، ويرهف السمع إلى ماسيأتى :

وقد ثبت بالاستقراء أن كل سورة فى أوائلها حرف التهجى بدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن نحو الم ذلك الكتاب ، المص كتاب أنزل إليك ، يس والقرآن ، ص والقرآن ، ق والقرآن ، حم تنزيل الكتاب — إلا ثلاث سور كهيعص ، الم أحسب الناس ، الم غلبت الروم .

وقد يحصل التنبيه فى القرآن بغير الحروف التى لا يفهم معناها كقوله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » ، وقوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ؟ » ، من قِبَل أن تقوى الله أمر عظيم ، ومثلها تحريم ما أحل الله .

وقد بدئت هذه السورة بالحروف وليس فيها البدء بالقرآن أو الكتاب من قِبَل أن فيها ذكر جميع التكاليف ، وهى شاقة على النفس ، فحسن البدء بحروف التنبيه للإيقاظ إلى ما يلقى بعدها :

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى أظن الذين نجوا من أصحابك من أذى المشركين أن نتركهم بغير اختبار ولا امتحان بمجرد قولهم : آمنا بك وصدقناك فيما جئتنا به من عند الله ، كلا لنمتحننهم بشاق التكاليف كالهجرة والجهاد فى سبيل الله ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأفانين المصايب فى الأنفس والأموال والثمرات ، ليمتاز المخلص من المنافق ، والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ، ونجازى كلا على حسب مراتب عمله .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

والخلاصة : أيظن الناس أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا دون أن يبتلوا بالفرائض البدنية والمالية كالهجرة من الأوطان والجهاد فى سبيل الله ودفع الزكاة للفقراء والمحتاجين وإغاثة البائسين والملهوفين .

ثم ذكر ما هو كالتسلية لهم بما نال من قبلهم بالمشاق فقال :

(ولقد فتنا الذين من قبلهم) أى ولقد اختبرنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضّوا على دينهم بالنواجذ ، فابتلينا بنى إسرائيل بفرعون وقومه وأصابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد ، وابتلينا من آمن بعيسى بمن كذبه وتولى عنه — لا جرم ليصيبنّ أتباعك أذى شديد وجهد عظيم ممن خالفهم وناصبهم العداء .

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن خَبّاب بن الأَرَتّ قال : « شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمْشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه ؛ فما يصده ذلك عن دينه ؛ والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ؛ لايخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» .

وعن أبى سعيد الخدرى قال: «دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف ، فقلت : يارسول الله ما أشدها عليك ! قال إنا كذلك يضعَّف لنا البلاء ، ويضعف لنا الأجر ، قلت : يارسول الله : أىّ الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ، قلت: ثم من ؟ قال : ثم الصالحون أنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يجوبها (يخرقها) وأنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء » .

ونحو الآية قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا » .

(فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أى وليظهرنّ الله الصادقين منهم فى إيمانهم من الكاذبين بما يشبه الامتحان والاختبار ، وليجازينّ كلا بما يستحق .

وخلاصة ماسلف : أيها الناس لاتظنوا أنى خلقتكم سدى ، بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم وأرقى منه فى كل شئونه ، ولا يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل واختباركم من آن إلى آخر بإنزال النوازل والمصايب فى الأنفس والأموال والثمرات ، والتخلى عن بعض الشهوات ، وفعل التكاليف من الزكاة والصيام والحج ونحوها . فحياتكم حياة جهاد وشقاء ، شئتم أو أبيتم .

وبمقدار ماتصبرون على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب ، وتلك سنة الله فيكم وفى الأمم من قبلكم ، وتاريخ الأديان ملىء بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسل .

(أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟) أى أيظن هؤلاء الذين يجترحون الإثم والفواحش أن يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم ولا نستطيع أن نجرى العدل فيهم وما قضت به سنتنا فى الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟ .

قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وعتبة والوليد بن عتبة وعتبة بن أبى معيط وحنظلة بن أبى سفيان والعاص ابن وائل .

(ساء مايحكمون) أى بئس حكما يحكمونه هذا الحكم ، وكيف يدور ذلك بخلدهم وإنا لم نخلق الخلق سدى ؛ بل ربيناهم وهذبناهم بضروب من التهذيب والعلم ؛ لعلهم يلمحون فى هذا العالم نور جمالى وجلالى .

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) .

شرح المفردات

يرجو : أى يطمع ، لقاء الله : أى نيل ثوابه وجزائه ، أجل الله : الوقت المضروب للقائه ، جاهد أى بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العبد لايترك فى الدنيا سدى وأن من ترك ما كلف به عذب — أردف ذلك ببيان أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لايضيع الله عمله ولا يخيب أمله ، ثم ذكر أن طلب ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إلى الله تعالى فهو غنى عن الناس جميعا ؛ ثم أرشد إلى أن جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة .

الإيضاح

(من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم) أى من كان يطمع فى ثواب الله يوم لقائه فليبادر إلى فعل ماينفعه وعمل مايوصله إلى مرضاته ويجتنب مايبعد من سخطه ، فإن أجل الله الذى أجله لبعث خلقه للجزاء لآت لامحالة ، والله هو السميع لأقوال عباده ؛ العليم بعقائدهم وأعمالهم ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، وفى هذا تنبيه إلى تحقق حصول المرجوّ والمَخُوف وعدا ووعيدا .

ثم بين سبحانه أن التكليف بجهاد النفس وجهاد الحرب ليس لنفع يعود إليه ، بل لفائدة المكلف فقال :

(ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين) أى ومن بذل جهده فى جهاد عدو أو حرب نفس فإنما يجاهد لنفع نفسه ، لأنه إنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده ، وهربا من عقابه ، وليس بالله إلى فعله حاجة ، فهو غنى عن جميع خلقه ، له الملك وله الأمر يفعل مايشاء .

ونحو الآية : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ » .

ثم بين بالتفصيل جزاء المطيع فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن

الذى كانوا يعملون) أى والذين آمنوا بالله ورسوله وصح إيمانهم حين ابتلائهم فلم يرتدوا عنه بأذى المشركين لهم وعملوا صالح الأعمال ، فأدوا فرائضه وقاموا بها حق القيام، فواسوا البائس الملهوف ، وأغاثوا المظلوم ، وقدّموا لوطنهم ماهو شديد الحاجة إليه ، فرأبوا صدعه ، وسدّوا ثغره، وكانوا للمؤمنين سندا ومعينا، حتى يصيروا كالبنيان يشد بعضه بعضا — لنكفرن عنهم سيئاتهم التى فرطت منهم فى شركهم أو صدرت منهم لماما فى إيمانهم وندموا على ما اجترحوه منها ولنثيبنهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون ، فنقبل القليل من الحسنات ، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ونجزى على السيئة بمثلها ؛ أو نعفو عنها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن العمل الصالح يكفر السيئات ويضاعف الحسنات — أعقب ذلك بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما ، لأنهما سبب وجوده ، فلهما عليه الإحسان والطاعة . فالإحسان إلى الوالد بالإنفاق ، وإلى الوالدة بالإشفاق ، إلا إذا حرضاه على الشرك وأمراه بالمتابعة على دينهما إذا كانا مشركين ، فإنه لايطيعهما فى ذلك ؛ ثم بين أن من يعمل الصالحات يدخله الله فى زمرة الأنبياء والأولياء ويؤتيه من الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل ماأوتى هؤلاء .

روى الترمذى «أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمه حمنة بنت أبى سفيان لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان بارا بأمه ، قالت له : ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتعير بذلك أبد الدهر يقال : ياقاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت دينى ؛ فكلى إن شئت و إن شئت فلا تأكلى ، فلما أيست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هـذه الآية ، آمرا بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ؛ وعدم طاعتهما فى الشرك » .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) أى وأمرناه بتعهدهما والبر بهما ، والإحسان إليهما ، كما قال فى آية أخرى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » .

(و إن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أى و إن حرضاك على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك أن تفعل ذلك ، وجاء فى الحديث الصحيح « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

ومعنى قوله : (ما ليس لك به علم) أنه لاعلم لك بإلهيته ، و إذا كان لايجوز أن يتّبع فيما لا يعلم صحته فأَحْرِ به ألا يتبع فيما يعلم بطلانه .

ثم توعد من يفعل ذلك بقوله :

(إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى مرجعكم جميعا إلىّ يوم القيامة ،

من آمن منكم ومن كفر ، ومن بر والديه ، ومن عقّ ، ثم أجازيكم على أعمالكم ، المحسن بإحسانه ، والمسىء بما هو أهله .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى والذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وعملوا مايصلح نفوسهم ، ويزكى أرواحهم ويطهرها ، لندخلنهم فى زمرة الصالحين ، ونجعلهم فى عدادهم ، فندخلهم الجنة معهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) .

المعنى الجملى

الناس فى الدين أقسام ثلاثة : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر مجاهر بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يظهر الإيمان بلسانه ، ويبطن الكفر فى فؤاده ، وقد بين القسمين الأولين بقوله : (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وبين أحوالهما بقوله : (أم حسب الذين يعملون السيئات) إلى قوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، ثم أردف ذلك بذكر القسم الثالث بقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الخ .

روى أن الآية نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضرب فارتد ، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك دهرا وحسن إسلامه .

الإيضاح

(ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) أى ومن الناس فريق يقول: آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه، جعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة، فارتد عن إيمانه، ورجع إلى كفره، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، وعذاب الناس له دافع، وعذاب الله ماله من دافع، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده العقاب الأليم، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا.

قال الزجاج: ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله. أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو ليلى عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، ولقد أخفت فى الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت علىّ ثالثة، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال».

وخلاصة ذلك: إن من الناس من يدّعون الإيمان بألسنتهم، فإذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى منهم، فارتدوا عن الإسلام، ورجعوا إلى الكفر الذى كان متغلغلا فى حنايا ضلوعهم وشغاف قلوبهم.

ونحو الآية قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ».

(ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) أى ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغانم ليقولن هؤلاء المنافقون: إنا كنا معكم إخوانا فى الدين ننصركم على أعدائكم، وهم كاذبون فيما يدعون.

ونحو الآية قوله: «الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ

اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » .

ثم توعدهم وذكر أنه عليم بما فى صدورهم ، لايخفى عليه شىء من أمرهم فقال :

(أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟) أى أوليس الله أعلم بما فى قلوب المنافقين وما تكنه صدورهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان ، فكيف يخادعون من لاتخفى عليه خافية ولايستتر عنه سر ؟ .

ثم ذكر أن هذه الفتنة إنما هى ابتلاء واختبار من الله ليستبين صادق الإيمان من المنافق الذى لايتجاوز الإيمان طرف لسانه ولايعدوه إلى قلبه فقال :

(وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) أى وليختبرن الله عباده بالسراء والضراء ، ليميز صادق الإيمان من المنافق ، من يطيع الله فى كل حال فيصبر على اللأواء إذا مسته ، ويعدها اختبارا له ، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوض الأمر فيها إلى ربه ، ومن يعصيه إذا حزبه الأمر ، واشتد به الخطب ، ولا يجد الصبر إلى قلبه سبيلا .

ونحو الآية قوله : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقوله : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

شرح المفردات

المراد بالحمل هنا : تبعة الذنوب ، والأثقال واحدها ثِقْل : وهو الحِمْل الذى يئود حامله ، والمراد به الذنب والإثم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف قسر الكفار للمؤمنين على الكفر وإلزامهم إياه بالأذى والوعيد ـ أردف ذلك بذكر دعوتهم إياهم إليه بالرفق واللين حينا آخر بنحو قولهم لهم : لاعليكم بذلك من بأس ، إننا نحتمل تبعات ذنوبكم ، ثم ردّ مقالتهم ببيان كذبهم ، فإن أحدا لايحمل وزر أحد يوم القيامة ، ثم ذكر أن المضلين يتحملون تبعات ضلالهم وإضلالهم ، ويكون لهم العذاب على كلا الجُرْمين .

روى عن مجاهد : أن الآية نزلت فى كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لانُبْعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم إثم فعلينا .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) أى وقال الكافرون من قريش لمن آمن منهم واتبعوا الهدى : ارجعوا إلى ديننا الذى كنتم عليه واسلكوا طريقنا ، وإن كانت عليكم آثام فعلينا تبعتها وهى فى رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى .

فردّ الله عليهم كذبهم بقوله :

(وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء) أى إنهم لايحملون ذنوبهم يوم القيامة ، فإن أحدا لايحمل وزر أحد كما قال تعالى : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » وقال « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ » .

ثم أكد ماسبق وقرره بقوله :

(إنهم لكاذبون) فيما قالوه إنهم يحملون عنهم الخطايا ، قال صاحب الكشاف : وترى المتَّسِمين بالإسلام من يستنّ بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم : افعل هذا وإثمه فى عنقى ، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلهم اه .

وبعد أن بين عدم منفعة كلامهم لمخاطبيهم ، بين مايستتبعه ذلك القول من المضرة لأنفسهم فقال :

(وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) أى وليحملن الدعاة إلى الكفر والضلال يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخرى بما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما جاء فى الآية الأخرى « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقُص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » .

ثم ذكر أنهم يوم القيامة يسألون على افترائهم على ربهم فقال :

(وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أى وليسألن حينئذ سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبونه فى الدنيا بوعد من أضلوهم بالأباطيل ، وقولهم لهم : (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) .

قصص نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) .

الإيضاح

بعد أن ذكر افتتان المؤمنين بأذى الكفار، وأرشد إلى أن من قبلهم من الأمم قد فتنوا، أعقبه بتفصيل من فتنوا من الأنبياء: كنوح وإبراهيم وهود ولوط وشعيب تسلية له صلى الله عليه وسلم، فقد ابتلوا بما أصابهم من المكاره، وصبروا عليها، فليكن ذلك قدوة للمؤمنين.

وقد بدأ بذكر أبى الأنبياء وهو نوح عليه السلام فذكر أنه مكث فى قومه ألف سنة يدعوهم إلى الله ليل نهار سرا وجهرا، وما زادهم ذلك إلا فرارا من الحق وإعراضا عنه، وتكذيباً له، وما آمن معه إلا قليل منهم، فأنزل الله عليهم طوفان الماء، فأهلكهم وهم مستمرون فى الظلم، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح من الآيات، ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصى هذه المدة، فأنجى الله نوحا ومن معه ممن ركب فى السفينة من أتباعه، وكانت تلك السفينة عبرة وموعظة أمدا طويلا مدة بقائها على جبل الجودى، ينظر إليها الناس، وترشدهم إلى نعمته على خلقه بالنجاة من الطوفان، كما قال: « إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » وقد تقدم تفصيل هذا فى سورة هود.

وجاء النظم هكذا: إلا خمسين عاما، ولم يقل: تسعمائة سنة وخمسين، لأن فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى فقد يطلق على مايقرب منه إلى أن ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض، وجىء بالمميز أولا بالسنة، ثم بالعام دفعاً للتكرار، ولأن العرب تعبر عن الخصب بالعام، وعن الجدب بالسنة، ونوح لما استراح بقى فى زمن حسن.

العبرة من هذا القصص

لايحزنك أيها الرسول ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى، فإنى وإن أمليت لهم وأطلت إملاءهم، فإن مصيرهم إلى البوار، ومصيرك ومصير

أصحابك إلى العلو والنصر ، كفعلنا بقوم نوح : إذ أغرقناهم بالطوفان ، وأنجينا نوحا وأتباعه من راكبي السفينة وجعلناها عبرة للعالمين .

وفى ذلك إيماء إلى أن نوحا قد لبث هذا الأمد الطويل يدعو قومه ، ولم يؤمن إلا القليل ، فصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر ، لقلة مدة لبثك ، وكثرة عدد أمتك .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) .

الإيضاح

(وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أى واذكر لقومك قصص إبراهيم حين كمل عقله وقدر على النظر والاستدلال ، وترقى من مرتبة الكمال إلى مرتبة إرشاد الخلق ، وتصدى للدعوة إلى طريق الحق ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، والإخلاص له فى السر والعلن ، واتقاء سخطه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

ثم بين لهم فائدة ذلك فقال :

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى فذلك الذى آمركم به خير لكم مما أنتم فيه

إن كان لديكم ذرة من الإدراك والعلم ، تميزون بها الخير من الشر ، وتعلمون ماينفعكم فى مستأنف حياتكم الدنيوية والأخروية .

ثم أرشدهم إلى فضل مايدعوهم إليه ، وفساد ماهم عليه بقوله :

(إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) أى ماتعبدون من دون الله إلا تماثيل هى مصنوعة بأيديكم ، وتكذبون حين تسمونها آلهة ، وتدّعون أنها تشفع لكم عند ربكم .

ثم زاد فى النعى عليهم والتهكم بهم ، و بيان أن ذلك لايجديهم نفعا فقال :

(إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا) أى إن أوثانكم التى تعبدونها لاتقدر أن ترزقكم شيئا من الرزق الذى لا قوام لكم بدونه ، فكيف تعبدونها ؟

ثم ذكر لهم من ينبغى أن يعبد فقال :

(فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) أى فالتمسوا الرزق عند الله لاعند أوثانكم تدركوا ماتطلبون ، واعبدوه وحده ، واشكروا له نعمه عليكم مستجلبين بذلك المزيد من فضله .

و بعد أن ذكر أنه هو الرازق فى الدنيا والمنعم على عباده ، بين أن المرجع إليه فى الآخرة ؛ فهو الذى يطلب رضاه ، والتقرب إليه ، والزلفى عنده ، فقال :

(إليه ترجعون) أى واستعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر له ، فإنكم إليه ترجعون ؛ فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره ، وأنتم عباده وخلقه ؛ وفى نعمه تتقلبون ، ومن رزقه تأكلون .

ولما فرغ من إرشادهم إلى الدين الحق ؛ حذّرهم من تركه ، وهددهم بما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل فقال :

(و إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أى و إن تصدقونى فقد فزتم بسعادة الدارين ، و إن تكذبونى فيما أخبرتكم به فلا تضرونى بتكذيبكم ، فقد كذب أمم

قبلكم رسلهم : كقوم إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، فجرى الأمر على ما سنه الله فى الخلق من نجاة المصدقين للرسل ، وهلاك العاصين لهم .

(وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى وما ضر ذلك الرسل شيئا ، بل هم قد ضروا أنفسهم ، فما على الرسول إلا التبليغ الذى لا يبقى معه شك ، وما عليه أن يصدقه قومه ، وقد خرجت من عهدة التبليغ ، ولا علىّ بعد ذلك أصدقتم ، أم كذبتم ؟ .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) .

شرح المفردات

النشأة : الخلق والإيجاد ، تقلبون : أى تردون بعد موتكم ، بمعجزين : أى جاعلين الله عاجزا ، من ولىّ : أى قريب ، ولا نصير : أى معين .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ثم الرسالة بقوله : (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور ، وقد قلنا فيما سلف : إن هذه الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها من بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث .

الإيضاح

(أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) أرشد إبراهيم خليل الرحمن قومه إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة ، وتصرفهم فى الحياة إلى حين ثم موتهم بعد ذلك ، والذى بدأ هذا قادر على أن يعيده بل هو أهون عليه كما قال فى آية أخرى : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

وخلاصة هذا : أنتم قد علمتم ذلك فكيف تنكرون الإعادة وهى أهون عليه ؟

وبعد أن ساق هذا الدليل المشاهد فى الأنفس ، أرشد إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة فقال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير) أى سيروا فى الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من الكواكب النيرة . ثوابتها وسياراتها ، والأرض وما فيها من جبال ومهاد ، وبرارى وقفار ، وأشجار وثمار ، وأنهار وبحار ، فكل ذلك شاهد على حدوثها فى أنفسها وعلى وجود صانعها الذى يقول للشىء كن فيكون .

أوَ ليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى ويوجده مرة ثانية وهو القادر على كل شىء ؟ .

وشبيه بالآية قوله فى الآية الأخرى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ولما أقام الدليل على الإعادة رتب عليها ما سيكون بعدها فقال :

(يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) أى يعذب من يشاء منكم ومن غيركم

فى الدنيا والآخرة بعدله فى حكمه على حسب سننه فى خلقه ، ويرحم من يشاء بفضله ورحمته ، فهو الحاكم المتصرف الذى يفعل مايشاء ويحكم بمايريد ، لامعقب لحكمه ؛ ولايسأل عما يفعل وهم يسألون .

(وإليه تقلبون) أى وإليه تردون بعد موتكم ؛ والمراد أنه إن تأخر ذلك عنكم فلا تظنوا أنه قد فات ؛ فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم ؛ وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم .

(وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) أى إنه تعالى لا يعجزه أحد من أهل سمواته ولا أرضه ؛ بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شىء فقير إليه ، فلو صعد إلى السماكين ، وهبط إلى موضع السموك فى الماء ماخرج من قبضته وما استطاع الهرب منه .

ولما بين أنه مقدور عليهم جميعا لايفلتون منه ، ذكر أنه لايستطيع أحد نصرهم فقال :

(وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) أى وما كان لكم أيها الناس ولى يلى أموركم ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضى أو سماوى ، ولا نصير يدفع عذاب الله عنكم إن قدّر لكم .

ولما قرر التوحيد والبعث هدد من خالفهما وتوعده فقال :

(والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم) أى والذين كفروا بالدلائل التى نصبها سبحانه فى الكون دالة على توحيده ، والدلائل التى أنزلها على رسله دالة على ذلك ، وجحدوا لقاءه والورود إليه يوم تقوم الساعة ، أولئك لا أمل لهم فى رحمته ، لأنهم لم يخافوا عقابه ولم يرجوا ثوابه ، ولهم عذاب مؤلم موجع فى الدنيا والآخرة .

ونحو الآية قوله : « إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية و إرسال الرسل والحشر والجزاء؛ أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن ألزمهم الحجة ، ولم يجدوا للدفاع سبيلا ، حينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره ، فقالوا لقومهم : ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ، فأنجاه الله من كيدهم ، وجعلها عليه بردا وسلاما ، فعاد إلى لومهم بعد أن أخرج من النار ، وقال : إن تمسككم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل و برهان ، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم ، فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة ، ولكنكم يوم القيامة تتحاجون حين يزول عمى القلوب ، وتستبين الأمور للبيب الأريب ، ويكفر بعضكم بعضا ، فيقول العابد : ماهذا معبودى ، ويقول المعبود : ماهؤلاء بعبدتى ، ويلعن بعضكم بعضا ؛ فيقول هذا لذاك : أنت الذى أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ، ويقول ذاك لهذا : أنت الذى أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادته ، ويود كل منكم أن يبعد عن صاحبه ، وأنى لهما ذلك ، وهما مجتمعان فى النار؟ وما لهما ناصر يخلصهما منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها .

الإيضاح

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار) أى فلم يكن جوابهم إذ قال لهم : اعبدوا الله واتقوه . إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو أحرقوه بالنار ، فأضرموا النار وألقوه فيها ، فأنجاه الله منها ، ولم يسلطها عليه ؛ بل جعلها بردا وسلاما .

ثم ذكر مافى هذا من العبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى إنجائنا لإبراهيم من النار ، وقد ألقى فيها وهى تستعر وتصييرها بردا وسلاما عليه ـ لأدلة وحججا لقوم يؤمنون بالله إذا عاينوا ورأوا مثل هذه الحجة .

ثم ذكر ماقاله إبراهيم لهم بعد إنجائه من النار :

(وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى وقال لهم مؤنباً وموبخا على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان : إنما اجتمعتم على عبادتها فى الدنيا للصداقة والألفة التى بين بعضكم و بعض ، فأنتم تتحابون على عبادتها ، وتتوادون على خدمتها ، كما يتفق الناس على مذهب ، فيكون ذلك سبب ألفتهم ومودتهم ، لا لقيام الدليل عندكم على صحة عبادتها .

وقصارى ذلك : إن مودة بعضكم بعضا هى التى دعتكم إلى عبادتها ، إذ قد رأيتم بعض من تودون عبدوها ، فعبدتموها موافقة لهم لمودتكم إياهم ، كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئا ، فيفعله مودة له .

ثم ذكر أن حالهم فى الآخرة ستكون على نقيض هذا فقال :

(ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) أى ثم تنعكس الحال يوم القيامة ، فتنقلب الصداقة والمودة بغضا

وشنآنا وتتجاحدون ما كان بينكم ، ويلعن بعضكم بعضا ، فيلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع كما قال : «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» ثم مرجعكم إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله .

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) .

شرح المفردات

لوط : هو ابن أخى إبراهيم على ماقاله النسابون - مهاجر إلى ربى : أى إلى الجهة التى أمرنى بالهجرة إليها ، وإسحاق هو ابنه الأكبر ، ويعقوب : حفيده وابن إسحاق ، وأجر الدنيا : الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والصالح لغة : هو الباقى على ماينبغى ، يقال : طعام بَعْدُ صالح أى هو باق على حال حسنة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لايفقه قدرها إلا من كان ذكى الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التى أودعها الله فى الكون - أردف هذا ببيان أنه لم يصدّق بما رأى إلا لوط عليه السلام ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان فى قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يئس من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام فراراً بدينه وقصدا إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدّد نعمه العاجلة عليه فى الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ؛ وآتاه الذكر الحسن إلى يوم

القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب فى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى .

الإيضاح

(فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) أى فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به ، وقال إبراهيم : إنى جاعل بلاد الشام دار هجرتى ؛ إذ أمرنى ربى بالتوجه إليها ، ويقال : إن مَهْجَره كان من كُوثَى من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ فى الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاؤه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لافائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقى عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رقيّة بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يامحمد رأيت ختنك ومعه امرأته ، قال : أى حال رأيتهما ؟ قالت : رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة (التى تدب فى الأرض ولاتسرع) وهو يسوقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » .

ثم ذكر العلة فى الهجرة فقال :

(إنه هو العزيز الحكيم) أى إن ربى هو العزيز الذى لايذل من نصره ، بل يمنعه ممن أراده بسوء ، الحكيم فى تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرّفهم فيه .

ثم ذكر سبحانه مامنّ به عليه من النعم فى الدنيا والآخرة كِفاء إخلاصه له فقال :

(١) — (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) أى ورزقناه من لدنّا إسحاق ولداً ويعقوب من بعده حفيدا .

ونحو الآية قوله: « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » وقوله : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » وفى الصحيحين: « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم » .

(٢) — (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فلم يوجد نبى بعده إلا وهو من سلائله ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم .

(٣) — (وآتيناه أجره فى الدنيا) فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ، فبدّل وحدته بكثرة الذرية ، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لامال له ولاجاه وهما غاية اللذة فى الدنيا ، فكثر ماله ، وعظم جاهه ، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء ، وصار معروفا بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر ، حتى قال قائلهم : « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ » وهذا لايقال إلا فى المجهول بين الناس؛ إلى أنه تعالى اتخذه خليلا ، وجعله للناس إماما .

(٤) (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى وإنه فى الآخرة لفى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العالمين .

وقصارى أمره — إنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين ، وآتاه الحسنى فى الحياتين .

قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة التى تنفر منها النفوس الكريمة ، السبيل : الطريق ، وكانوا يتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال .

المعنى الجملى

بعد أن قص علينا سبحانه قصص إبراهيم وما لاقاه من قومه من العتوّ والجبروت ، ثم نصره له نصرا مؤزرا — أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصرا له وسبقه إلى الدعوة إلى الله ، وقد افتنّ قومه فى فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سذوم العذاب جاءوا ضيوفا لإبراهيم عليه السلام .

الإيضاح

(ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى واذكر قصص لوط حين أرسلناه إلى أهل سذوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع إليهم فصاروا قومه ، فأنكر عليهم سوء صنيعهم وقبيح أفعالهم التى اختصوا بها ولم يسبقهم إليها أحد من قبلهم ، لفظاعتها ، ونفرة الطباع السليمة منها .

ثم فصل هذه الفاحشة وكرر الإنكار عليها فقال :

(١) (أئنكم لتأتون الرجال) إتيان الشهوة وتستمتعون بهم الاستمتاع بالنساء.

(٢) (وتقطعون السبيل) أى وتقفون فى الطرقات تتعرضون للمارة تقتلونهم وتأخذون أموالهم .

(٣) (وتأتون فى ناديكم المنكر) أى وتفعلون من الأفعال والأقوال فى أنديتكم ومجتمعاتكم ما لا يليق ويخجل منه أرباب الفطر السليمة ، والعقول الراجحة الحصيفة .

أخرج أحمد والترمذى والطبرانى والبيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (وتأتون فى ناديكم المنكر) فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون (يرمون بالحصى) أبناء السبيل ، ويسخرون منهم» وفى رواية عن ابن عباس «هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العِلْك (اللبان) والسواك بين الناس وحل الإزار والسِّباب والفحش فى المزاح » .

ثم ذكر جوابهم عن نصحه لهم فقال :

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) أى فما كان جوابهم إذ نهاهم عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التى حرمها عليهم إلا قولهم : ائتنا بعذاب الله الذى تعدنا به إن كنت صادقا فيما تقول ، ومُنْجزا ما تعد ، وكان قد أوعدهم بالعذاب على ذلك .

وهذا الجواب صدر منهم فى أولى مواعظه ، فلما ألحف عليهم فى الإنكار والنهى قالوا « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » كما جاء فى سورة الأعراف

وفى هذا إيماء إلى شديد كفرهم وعظيم عنادهم .

ولما يئس من هدى قومه واتباعهم نصحه طلب من الله نصره فقال :

(قال رب انصرنى على القوم المفسدين) أى قال رب انصرنى على هؤلاء الذين ابتدعوا الفواحش وجعلوها سنة فيمن بعدهم وأصروا عليها وجعلوا وعيدنا لهم تهكما وسخرية ، فأنزل عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

شرح المفردات

القرية : هى سذوم ، الغابرين : الباقين ، وهو لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى؛ يقال فيا غبر من الزمان : أى فيا مضى ، ويقال الفعل ماض ، وغابر : أى باق ، سىء بهم : أى جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء ، ضاق بهم ذرعا : أى عجز عن تدبير شئونهم ، يقال طال ذرعه وذراعه على الشىء إذا كان قادراً عليه ، ومثله رحب ذرعه ، وضده ضاق ذرعه ، لأن طويل الذراع ينال مالا يناله قصيره ، والرجز: العذاب الذى يقلق المتعذب أى يزعجه من قولهم : ارتجز ؛ فلان وارتجس : أى اضطرب .

المعنى الجملى

لما استنصر لوط عليه السلام ربه بقوله : (رب انصرنى على القوم المفسدين) استجاب دعاءه و بعث لنصرته ملائكة، وأمرهم بإهلاك قومه، وأرسلهم من قبل بالبشرى لإبراهيم فجاءوه و بشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادى أهلها فى الشر و إصرارهم على الكفر والمعاصى ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال إن

فى القرية لوطا فقالوا إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم ننزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجترموا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين وآية بينة لقوم يعقلون .

الإيضاح

(ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية) أى ولما جاءت رسل الله مبشرة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ـ قالوا لإبراهيم إنا مهلكو قرية سذوم قرية قوم لوط .

ثم ذكروا سبب ذلك فقالوا :

(إن أهلها كانوا ظالمين) لأنفسهم بتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى ، وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولما قالت له الملائكة ذلك :

(قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها) أى قال إبراهيم إشفاقا على لوط ليعلم حاله : إن فى القرية لوطا وهو ليس من الظالمين لأنفسهم ، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له ، فقال الرسل نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين ، وبأن لوطا ليس منهم .

ثم زادوا ما سلف إيضاحا وطمأنوه بذكر ما يسره من نجاته بقولهم .

(لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أى لننجينه وأتباعه من الهلاك الذى هو نازل بأهل القرية إلا امرأته فإنها من الباقين فى العذاب لممالأتها إياهم على الكفر والبغى وفعل الخبائث .

ثم ذكر ما كان من أمر لوط حين مجىء الرسل ضيوفا لديه فقال :

(ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن) أى ولما أن جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه

خاف عليهم من قومه وحصلت له مساءة وغم بسببهم مخافة أن يقصدهم أحد بسوء وهو عاجز عن مدافعة قومه وتدبير الحيلة لحمايتهم ودفع الأذى عنهم ، وحين رأوه على هـذه الحال من القلق والاضطراب قالوا له : هَوِّنْ على نفسك ولا تخف علينا ولا تحزن بما تفعله بقومك ، فإنهم قد بلغوا فى الخبث مبلغا لامطمع فى رجوعهم عنه مهما نصحت وألحفت فى الإرشاد .

ثم ذكروا مايوجب زوال خوفه وحزنه وما يشيرون به إلى أنهم ملائكة فقالوا:

(إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) أى إنا منجوك من العذاب الذى سينزل بقومك ، ومنجو أتباعك معك ، فلن يصيبكم ما يصيبهم منه إلا امرأتك فإنها من الهالكين ، لمظاهرتها إياهم والميل إلى شد أزرهم والدفاع عنهم ، فقد كانت تدلهم على ضيوفه فيقصدونهم بالسوء ، فصارت شريكة فى الْجُرْم .

وبعد أن بشروه بالنجاة قالوا له :

(إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) أى منزلون عليها عذابا من لدنا يرتجزون له (يضطربون) وتنخلع له قلوبهم ، لأن الفسق قد تغلغل فى أفئدتهم وصار هِجِّيراهم وديدنهم .

وأشهر الآراء أن زلزلة خسفت بهم الأرض وابتلعتهم فى باطنها وصار مكان قريتهم بحيرة ملحة (البحر الميت) .

وبعدئذ بين أن ما حل بهم عبرة لمن اعتبر وادّكر فقال :

(ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) أى ولقد أبقينا مما فعلنا بهم عبرة بينة ، وعظة زاجرة ، لقوم يستعملون عقولهم فى الاستبصار ، وجعلناها مثلا للآخرين .

ونحو الآية قوله: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟»

وتقدم أن قلنا آنفاً عند ذكر هـــذه القصة ما أثبته الكشف الحديث فى هذا الموضع .

قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)

شرح المفردات

مدين : أبو القبيلة ، وارجوا اليوم الآخر : أى توقعوه وتوقعوا ما يحدث فيه من الأهوال ، ولا تعثوا: أى ولا تفسدوا ، والرجفة: الزلزلة الشديدة ، جاثمين: أى مقيمين؛ من جثم الطائر : إذا قعد ولصق بالأرض ، والمراد أنهم ماتوا .

الإيضاح

(وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى وأرسلنا إلى مدين شعيباً فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحدا وأخلصوا له العبادة ، وارجوا بعبادتكم إياه جزاء اليوم الآخر وثوابه ، ولا تفسدوا فى الأرض ولا تبغوا على أهلها فتنقصوا المكيال والميزان وتقطعوا الطريق على الناس بل توبوا إلى ربكم وأنيبوا إليه .

ثم ذكر ما أعقب هذا النصح فقال :

(فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فكذبوه فيما جاءهم به من عند ربهم فأهلكهم بزلزلة عظيمة ارتجفت لها القلوب واضطربت الأفئدة ، فأصبحوا فى دارهم ميتين لاحراك بهم .

وقد تقدمت هذه القصة مبسوطة فى السور : الأعراف . هود . الشعراء .

قصص هود وصالح عليهما السلام

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا عادا قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى قريبة من بلاد اليمن . وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الْحِجْر قريبا من وادى القرى مع ما كانوا عليه من العتوّ والتكبر ، وكانت العرب تعرف مساكنهما معرفة تامة وتمر عليها كثيرا وترى ما حل بها .

وما سبب ما جرى عليها إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم من عبادة غير الله ، وصدهم عن الطريق السوى الذى يوصلهم إلى النجاة ، وقد كانوا متمكنين من النظر والاستبصار ، فلم يكن لهم عذر فى الغفلة وعدم التدبر فى العواقب .

قصص موسى عليه السلام

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)

شرح المفردات

يقال سبق فلان طالبه : أى فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أىّ إدراك ، فتداركوا نحو الدمار والهلاك .

الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة ، وفرعون ملك الملوك فى عصره ومصره ووزيره هامان ، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل

على صدق رسالته، فاستكبروا فى الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به، وما كانوا فائتين الله وهاربين من عقابه، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر.

عاقبة الأمم المكذبة لرسلها

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

شرح المفردات

الحاصب: الريح العاصفة فيها حصباء: أى حجارة صغيرة.

الإيضاح

(فكلا أخذنا بذنبه) أى أهلك الله الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب:

(١) (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) كقوم عاد إذ قالوا من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر عاتية باردة شديدة الهبوب تحمل الحصباء فألقتها عليهم.

(٢) (ومنهم من أخذته الصيحة) كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة ولم يؤمنوا، بل استمروا فى طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبى الله صالحا ومن آمن معه، فجاءتهم صيحة أخمدت منهم الأصوات والحركات.

(٣) (ومنهم من خسفنا به الأرض) كقارون الذى طغى وبغى، وعصى الرب الأعلى، ومشى فى الأرض مرحا، وتاه بنفسه عجبا، فخسف الله به وبداره الأرض.

(٤) (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح أغرقوا بالطوفان، وفرعون وهامان وجنودهما أغرقوا فى صبيحة يوم واحد.

ثم بين أن هذه العقوبة جزاء ما اجترحوا من الآثام والذنوب ولم تكن ظلما لهم فقال:

(وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى ولم يكن الله ليهلكهم بغير جرم اجترموه ، لأن ذلك ليس من سننه تعالى ، وهو لا يوافق منهج الحكمة ، فلا يصدر عن الحكيم ، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم وجحودهم نعمه عليهم وتقلبهم فى آلائه ، وعبادتهم غيره ومعصيتهم من أنعم عليهم .

مَثَلُ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

المعنى الجملى

بعد أن أسلف ــ سبحانه ــ أنه أهلك من أشرك به بعاجل العقاب ، وسيعذبه بشديد العذاب ، ولا ينفعه فى الدارين معبوده ، ولا يجديه ركوعه وسجوده ــ أردف هذا بتمثيل حال من اتخذ معبودا دون الله بحال العنكبوت ، وقد اتخذت لها بيتا لا يريحها إذا هى أوت ، ولا يجيرها من حر أو برد إذا هى ثوت ، ثم زاد الإنكار توكيدا فذكر أن مايدعونه ليس بشىء فكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة من ليس بشىء ، ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس ، وأنه لايدرك مغزاها إلاذوو الألباب ، الذين يفهمون خبىء الكلام وظاهره ، وسره

وعلانيته ، ثم ذكر أنه لم يخلق السموات والأرض إلا لحكمة يعلمها المؤمنون ، ويدركها المستبصرون وهى ما أرشد إليها بقوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

و بعد أن أمر سبحانه عباده بما تقدم بيانه وأظهر الحق ببرهانه ، ولم يهتد بذلك المشركون ؛ سلى رسوله بأمره بتلاوة كتابه وعبادته تعالى طرفى النهار وزلفا من الليل ، و إرشاده إلى أن الله عليم بما يصنع عباده وسيجازيهم كفاء ما يعملون من خير أو شر .

الإيضاح

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) أى مثل الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها لدى الشدائد ؛ فى قبيح احتيالهم وسوء اختيارهم لأنفسهم ، كمثل العنكبوت فى ضعفها وقلة حيلتها ، اتخذت لنفسها بيتا يكنها من حر و برد ودفع أذى ، فلم يغن عنها شيئا حين حاجتها إليه ، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل أمر الله بهم وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا ولم يدفعوا عنهم ما أحل بهم بعبادتهم إياهم .

وخلاصة ذلك — إن بيت العنكبوت لا يكنّ ولا يمنع أذى الحر والبرد كما هو شأنها فيما ترون ، فكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق ، وجر المنافع ، ودفع المضار ، وما عبده الكافرون لم يفدهم شيئا من ذلك ، فكيف بهم يصرون على عبادتهم .

ثم ذكر جهلهم وسوء تقديرهم لما صنعوا فقال :

(و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) أى لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء — يعلمون أن أولياءهم لا يجدونهم فتيلا ولا قطميرا ؛ كما لا يجدى بيت العنكبوت عنها شيئا — مافعلوا ذلك ؛ لكنهم قد بلغ بهم الجهل وسوء

التقدير حدًّا لايستطيعون معه العلم بعواقب مايفعلون ؛ ومن ثم فهم يحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى .

وإجمال ماتقدم : مثل المشرك الذى يعبد الوثن إذا قيس بالموحد الذى يعبد الله ؛ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بآجرّ وجص أو نحته من صخر ؛ وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت ، فأضعف الأديان إذا سبرتها دينا فدينا عبادة الأوثان .

ثم زاد الإنكار توكيدا وتثبيتا فقال :

(إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء) أى إن الله يعلم حال ما تعبدون من دونه من الأوثان والأصنام والجن والإنس ، وأنها لا تنفعكم ولا تضركم إن أراد الله بكم سوءا ، وإن مثلها فى قلة غنائها لكم ، كمثل بيت العنكبوت فى قلة غنائه لها .

وقد يكون المعنى : ليس الذين يدعون من دونه شيئا ، إذ هو لحقارته وقلة الاعتداد به لا يسمى شيئا .

(وهو العزيز الحكيم) أى والله هو العزيز فى انتقامه ممن كفر به وأشرك فى عبادته معه غيره ، فاتقوا ــ أيها المشركون به ــ عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم ، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم فى هذه السورة ، فإنه إن نزل بكم لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه شيئا ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ؛ فمهلك من استوجب عمله الهلاك ، ومؤخر من رأى فيه الرجاء للصلاح والاستقامة .

ثم بين فائدة ضرب الأمثال فقال :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أى وهذا المثل ونظائره من الأمثال التى اشتمل عليها الكتاب العزيز ؛ فضربها للناس تقريبا لما بَعُدَ من أفهامهم ، وإيضاحا لما أشكل عليهم أمره ، واستعصى عليهم حكمه ، وما يفهم مغزاها ومعرفة تأثيرها ، واستتباعها لكثير من الفوائد إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى عواقب الأمور .

روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال «العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه» .

ولما قدم سبحانه أن لا معجز له سبحانه ، ولا ناصر لمن خذله، أقام الدليل على ذلك بقوله :

(خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى خلق السموات والأرض لحكم وفوائد دينية ودنيوية ولم يخلقها عبثا ولهوا ، فبخلقها أمكن إيجاد كل ممكن تعلق به العلم ، واقتضت الإرادة إيجاده ، وأمكن معرفة الخالق الذى أوجدها وعبادته كفاء نعمه ، كما جاء فى الحديث القدسى حكاية عن الله عز وجل : « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفونى » .

ولا يفهم هذه الأسرار إلا من آمنوا بالله وصدقوا رسوله ، لأنهم هم الذين يستدلون بالآثار على مؤثرها كما أثر عن بعض العرب : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام تدل على المسير » .

ثم خاطب رسوله مسليا له بقوله :

(اتل ما أوحى إليك من الكتاب) أى أدم تلاوة الكتاب تقربا إلى الله بتلاوته ، وتذكرا لما فى تضاعيفه من الأسرار والفوائد ، وتذكيرا للناس ، وحملا لهم على العمل بما فيه من أحكام وآداب ومكارم أخلاق .

(وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) أى وأدّ الصلاة على الوجه القيّم مريدا بذلك وجه الله ؛ والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له ؛ فإنها إن كانت كذلك نهتك عن الفحشاء والمنكر ؛ لما تحويه من صنوف العبادات من التكبير والتسبيح ، والوقوف بين يدى الله عز وجل ، والركوع والسجود بغاية الخضوع والتعظيم ، ففى أقوالها وأفعالها ما يومئ إلى ترك الفحشاء والمنكر ، فكأنها تقول : كيف تعصى ربا هو أهل لما أتيت به ؟ وكيف يليق بك أن تفعل ذلك

وتعصيه ؟ وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال وأفعال تدل على عظمة المعبود وكبريائه ، وإخباتك له ، وإنابتك إليه ، وخضوعك لجبروته وقهره ؛ إذا عصيته وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله .

(ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته .

(والله يعلم ماتصنعون) من خير أو شر وهو يجازيكم كفاء أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما جرت بذلك سنته فى خلقه ، وهو الحكيم الخبير .

ولايخفى مافى ذلك من وعد ووعيد ؛ وحث على مراقبة الله فى السر والعلن « إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

تم تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة حاضرة الديار المصرية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف هجرية . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٦٦	إرسال الأنبياء قطع للحجة على الناس .
٦٨	طلب المشركين من الرسول أن يأتى بمعجزات كمعجزات موسى وقد كفر المعاندون من قبل بها .
٦٩	الحكمة فى إنزال القرآن منجما .
٧٠	من آمن من أهل الكتاب يؤتى أجره مرتين .
٧١	فى الحديث: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين .
٧٢	أوصاف المؤمنين من أهل الكتاب .
٧٤	« إنك لا تهدى من أحببت » نزلت فى أبى طالب .
٧٥	احتجاج المشركين على عدم إيمانهم .
٧٦	عدم الإيمان موجب لهلاك القرى .
٧٧	لا يهلك الله قرية إلا إذا ظلم أهلها .
٧٨	زينة الدنيا ظل زائل، وما عند الله خير وأبقى .
٨٠	يسأل المشركون يوم القيامة عن الأوثان الذين عبدوهم من دون الله .
٨١	جواب الرؤساء الدعاة إلى الضلال .
٨٣	يسأل المشركون عن تكذيبهم للأنبياء .
٨٤	حال من تاب من الكفار يوم القيامة .
٨٥	اصطفاء بعض المخلوقات بالرسالة من حق الله ، لا من حق البشر .
٨٦	الاستخارة الشرعية .
٨٧	بعض صفات كماله سبحانه .
٨٨	تفصيل ما يجب أن يحمد عليه من النعم .
٨٩	المخالفة بين الليل والنهار فضل من الله .
٩٠	اتخاذ الشركاء لله لم يكن عن دليل، بل كان عن محض الهوى .
٩٢	قصص قارون فيه بيان عاقبة أهل البغى والجبروت

الصفحة	المبحث

الصفحة المبحث